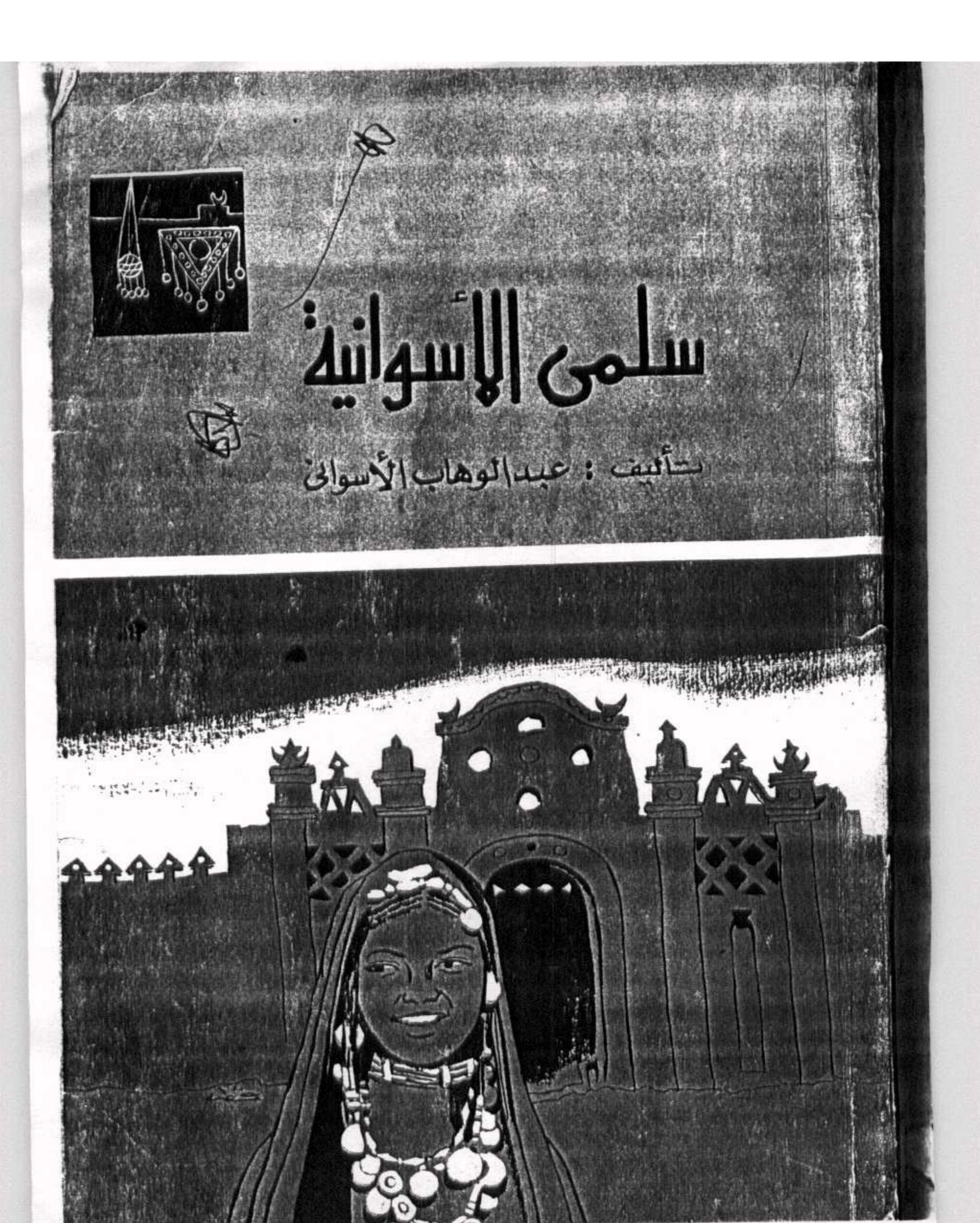


سلمى الأسوانية
تأليف : عبد الوهاب الأسوانى


سلمى الأسوانية
عبدالوهاب الأسوانى

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

القصة الفائزة بجائزة

نادى القصة الأولى لسنة ١٩٦٦

الغلاف : للفنان محمد قطب
الرسوم : للفنان سعيد المسيرى

الفصل الأول

قطار الصعيد من جديد .. للمرة العشرين ان لم تزد .. ضجيج المسافرين بمحطة القاهرة لا ينقطع .. اشعر بالضجر من الآن .. فكيف الحال وانا سأقضى فى مكانى هذا أكثر من خمس عشرة ساعة .. سأقضيها كلها فى قلق وذهنى مشغول ببرقية أبى التى يطلب منى فيها الحضور فورا .. ترى لماذا ؟ .. هل أمى مريضة ؟ .. لو كانت مريضة لقال ذلك فى برقيته .. هل المريضة هى اختى ؟ .. حتما كان سيذكر ذلك ايضا .. اذن ماذا ؟

حينما تسلمت البرقية لم استطع حتى ان أفكر فى الأمر .. فانا أعرف والدى جيدا .. هو من ذلك الطراز الذى اذا اصدر أمرا ونوقش فيه ـ مجرد مناقشة ـ أقام الدنيا وأقعدها وأدخل الانسان فى عدة مشاكل لا يعرف معها رأسه من قدميه ! ..

هو صارم جدا .. لكنه طيب جدا .. يكفى ان يطاع فى الظاهر وتنفذ أوامره .. بعد ذلك هو مستعد أن يمد يديه ليقيد ويخالف فى الباطن ولا ينفذ له أمر .. أما اذا كانت هناك مخالفة علنية أو مجرد مناقشة .. فيا أيتها الدواهى : دقى !

***

بدأ القطار يتحرك .. فى المقعد المقابل رجل فى حوالى الأربعين من عمره .. يضع على ركبتيه (بالطو) ثقيلا .. خلع نظارته السوداء



وراح يتطلع الى فى تودد .. لا بأس من ان أشجعه على الكلام .. فالطريق طويل ولا يستطيع الانسان ان يقطعه صامتا .. تطلع الى سمرتى وقال :

ــ اسوان ؟

ــ ان شاء الله

ــ اسوان نفسها ؟

ــ لا .. قبلها بقليل

ــ اين ؟

ترددت قبل أن أقول :

ــ بلدة صغيرة .. اسمها المنصورية

هتف بمجرد سماعه الاسم

ــ الجزيرة ؟

دهشت وسررت فى آن واحد .. فقلت :

ــ نعم .. هل زرتها ؟

قال فى سرور :

ــ نعم .. زرتها كثيرا مع أبى .. كان يعمل صرافا وقتها .

ثم استطرد وهو يضحك :

ــ يالها من جزيرة عجيبة !

سألته :

ــ ما العجيب فيها ؟ ...

قال ولا يزال يوالى ضحكه :

ــ يخيل الى ان الحياة فى جزيرتكم تختلف عنها فى أى مكان آخر .. واعجب ما عندكم هو نظام القبائل .

ومر علينا بائع سجائر .. اشترى منه علبة وناولنى سيجارة واشعل لنفسه أخرى ثم استطرد قائلا :

ــ كل عائلة كبيرة عندكم تطلق على نفسها اسم قبيلة .. نظام عربى قديم .

ــ نعم .. أهل الجزيرة ينحدرون من اصول عربية قديمة .
قال وهو يهز رأسه :
ــ فعلا .. من لهجتهم الانسان يدرك ذلك .. اللهجة اقرب ما تكون الى الفصحى لولا بعض الكلمات الغريبة .
قلت :
ــ الكلمات الغريبة جاءت من جوارهم للنوبيين واختلاطهم بهم
ثم سألته :
ــ الى أين ؟
قال :
ــ الاقصر
قلت :
ــ سنقضى معا اكثر الوقت
قال :
ــ أن شاء الله
ثم سألنى :
ــ العمده مرعى .. موجود ؟
قلت :
ــ توفى منذ زمن
ظهر عليه الأسى وقال :
ــ الله يرحمه .. كان رجلا ولا كل الرجال
لم أشأ أن اقول له ان جزيرتنا استراحت بموت العمدة مرعى .. وانه كان يثير المشاكل مع القرى المجاورة ويحرض أهل جزيرتنا على قتالهم فتنشب المعارك الطاحنة لأتفه الأسباب .
جذب نفسا عميقا من سيجارته وقال :
ــ رأيته مرة يركب حصانه الأبيض ويفض ــ وحده ــ معركة نشبت بين بلدكم وبين بلدة (دراو) .. بمجرد أن صاح فى الناس « ارجع يا ولد » انفصل الفريقان !

هذا الرجل له الظاهر .. اما الحقيقة فهى ان العمدة كان يصيح بأعلى صـــوته (ارجع ياولد) بينما يقول بصوت منخفض (ادخل ياولد) .. وحينما يريد للمعركة ان تنتهى يصيح (ارجع ياولد) بنغمة خاصة متفق عليها ..

قطع الرجل أفكارى بقوله :

– كان شجاعا .. هه ؟

– لا شك فى ذلك !

ثم مد جذعه الى الامام وقال :

– من العمدة الآن ؟

– ابنه .. دياب

عقد ما بين حاجبيه وقال :

– ذلك الغبى أصبح عمدة ؟

– طبعا .. بالوراثة !

ضحك وقال

– الا يزال بدينا ؟

قلت :

– ازداد بدانة !

وترقبنا عامل (البوفيه) فلم نر له أثرا .. وقام الرجل وهو يقول

– سآتيك به حالا ..

حديث الرجل خفف عنى قلقى الذى سببته برقية أبى الغـامضة .. وردنى الى التفـكير فى جزيرتى الجميلة التى تثير الخيال .. ترى .. لو ان جغرافيا عالميا زار جزيرتنا وعاش فيهـا لبعض الوقت .. واراد ان يكتب عنها .. ماذا كان سيكتب ؟ .. أغلب ظنى أنه سيكتب :

« جزيرة كبيرة يحيطها النيل من جهاتها الاربع .. سكانها يتفرعون الى عشر قبائل امتزجت عاداتها العربية بالعادات النوبية

.. سكان الجزيرة لا يعترفون بأن بلدتهم مجرد جزيرة تتوسط نهر النيل .. يعتقدون بأنها امبراطورية مترامية الاطراف ومن حقها أن تتعامل مع القرى التى تجاورها كما تتعامل أية امبراطورية عظيمة مع البلاد التى تقل عنها شأنا .. ولها الحق فى ان تعين السفراء .. وتبرم المعاهدات .. وتعقد الصفقات التجـارية .. فاذا غضبت من قرية مجاورة ، قطعت معها العلاقات الدبلوماسـية والثقافية والتجارية .. وربما أعلنت عليها الحرب !!

وأبناء الجزيرة معروفون بالنشاط والمغامرة وحب الاسفار .. يملكون اكبر أسطول من المراكب الشراعية فى المنطقة .. أسطول يتكون من قطع كثيرة منها الصغيرة التى لا تتسع لأكثر من أربعـة اشخاص .. ومنها (البطوط) الكبيرة التى تجوب النيل حتى دمياط .

، وموقع الجزيرة الجغرافى له أهميته وخطره .. فهى تجاور خمس قرى وان فصلها عنها النيل .. وباستطاعتها ـ بواسطة أسطولها ـ ان تقاتل ثلاث قرى فى يوم واحد .. ففى امكانها ان تنقل جيشها الى الشاطىء الشرقى فى الصباح .. ثم تنقله الى الشاطىء الشمالى عند الظهر .. وباستطاعتها أيضا ان تنقله الى الشاطىء الغربى قبل حلول المساء ! .

بفضل موقعها الجغرافى الخطير .. وبفضل أسطولها الضخم تمكنت من التحكم فى الزمان والمكان فى حروبها .. واستطاعت ان تحتـل ثلاث جزر صغيرة ـ ظهرت فى النيـل من تأثير الفيضان ـ وان تبسط عليها نفوذها .. ومن ثم راحت تنظر اليها نظرتها الى مستعمراتها الواسعة فيما وراء البحار !!

***

عاد الرجل ومعه عامل البوفيه يحمل الشاى .. سألنى وهو

يحتسى الشاى فى تلذذ :

ـ **تزوجت ؟**

ـ **ليس بعد**

قال وهو يبتسم :

ـ **خاطب ؟**

ـ تقريبا ‥ شبه خطبة

فرد ابهامه واشار الى اتجاه القطار ثم مد سبابته واشار بها فى الاتجاه المضاد وقال :

ـ **هنا ‥ أو هنا ؟**

ضحكت وأنا أشير ناحية الشمال

ـ **هنا !**

رفع حاجبيه دهشة ‥ ثم خفضهما وغمز بعينه وقال :

ـ **تعجبنى !**

وتذكرت (نادية) ‥ كانت قلقة وهى تودعنى على محطة سيدى جابر ‥ فارقتها ابتسامتها واكتسى وجهها **الجميــــل بسحابة** من الحزن ‥ كانت **تعتقد** أن أبى ـ ذلك الرجل **الجبـــار في نظرها ـ لن يوافق** على زواجى من فتاة عصرية **مثلها ‥ فمنذ** أن رأته أثناء زيارته لى بالاسكندرية وهى لا تخفى قلقها ‥ رأته يخاطبنى بصيغة **عسكرية** آمرة ‥ ورأتنى انفذ له كل ما يأمر به ‥ **فانتابها القلق والخوف .**

سألنى الرجل وهو يستعد للنوم :

ـ **طالب ؟**

ـ لا ‥ انهيت دراستى منذ عدة شهور

ـ اشتغلت ؟

ـ نعم ‥ والحمد لله

قال وهو يضع **البالطو** تحت رأسه ويلف طرفه على وجهه :

ـ اذن لم يبق الا الزواج .. عندكم يتزوجون فى الخامسة عشرة .. تأخرت انت !!

مالبث الرجل ان استغرق فى النوم .. وحاولت ان اقلده لكننى فشلت ·· وسرحت بأفكارى مع نادية ·· قالت لى قبل أن يتحرك القطار بقليل :

ـ انا خائفة

ـ من ماذا ؟

ـ لست ادرى !

قلت لها وأنا أبتسم :

ـ لم لا تقولين انك خائفة من ابى ؟

التفتت ناحيتى بسرعة ·· وصمتت قليلا ثم قالت :

ـ اتريد الحق ؟

ـ وليس ابن عمه !

ـ أنا أحب أباك ·· وأخافه !

وصفر القطار ·· فامسكت بيدها وقلت :

ـ اسمعى

ـ نعم

ـ لن أعود من عنده الا وأنا أحمل موافقته على عرض متموغ وقد بصم عليه بالعشرة !

ابتسمت .. وابتسم قلبى .. وتحرك القطار

* * *

الفصل الثانى

قضيت الليلة وأنا أقلب وجوه الفكر فيما عسى أن يكون الأمر الذى جعل أبى يرسل الى برقيته ويطلب منى الحضور فى لهجة حاسمة ؟

ومع اننى خمنت عشرات التخمينات الا أننى لم أستطع أن اقطع بأحدها .. واشرق على الصباح ولم يغمض لى جفن .. وقبيل محطة الاقصر بقليل غمزت الرجل فقام من نومه مذعورا وتساءل :

— وصلنا ؟

— المحطة القادمة

وهرول ليغسل وجهه ثم عاد بعد قليل ليتناول حقيبته ويودعنى :

— تفضل معنا !

— ألف شكر .

وبعد نزوله باربع ساعات دخل القطار حدود أسوان الشمالية وامتلأت المقاعد بذرات التراب .. فقد ضاقت رقعة الأرض المزروعة بعد أن زحفت عليها الصحراء .. وبعد أن توغل فيها بحوالى ساعة ونصف الساعة وقف بى على محطة (دراو) لاجد أبى فى انتظارى على رصيف المحطة بعمامته الكبيرة وزعبوطه الواسع وقد اسدل عباءته وراء ظهره .. وكان بصحبته بعض أفراد قبيلتنا .. فسلموا على بحرارة ولعبت الاحضان دورا كبيرا فى الاستقبال .. وسألت أبى فى لهفة :

ـ خير ؟

فرد على فى اقتضاب :

ـ خير !

ثم تمتم بصوت خفيض بما ينبىء بأن الامر لا ينبغى التحدث فيه هـكذا على قارعة الطريق .. واشار بيـده وكانه يقول « ستعرف فيما بعد »

وسرنا فى الطريق الزراعى الطويل الذى يشق حقول القصب فى اتجـاه النيل يتقـدمنا أبى بقامته الطويلة ومنكبيه العريضين والهـواء يتلاعب بأطراف عباءته فتبدو كالأجنحة .. وبعد مسيرة نصف ساعة تقريبا ظهر النيل بعظمته وجبروته .. النيل هنـا يختلف عنه فى أى مكان آخر .. هنا يبدو شابا فتيا قد انحدر توا من (الشلالات) وما زال لدواماته وتياراته صـخب وضجيج .. فى الضفة المقابلة ظهرت جزيرتنا بنخيلها واشجارها وكأنهـا الرايات قد رفعت على سوارى الخيل ! .. وعلى عرض النيـل وطوله فى مواجهة الجزيرة انتشرت (قطع الأسطول) غادية رائحـة بين الشاطئين فى خفة ونشاط .

وبمجرد أن نزلنا فى المركب التى ستعبر بنا النيل هرع الينا الحاج أحمـد (المعرف) أو ـ رئيس المعادى ـ ليسلم علينـا فناولته ورقة من فئة الجنيه .

ومع ان الاجرة للفرد هى قرش صـاغ واحد الا ان الذى يحضر من السفر لابد من أن يدفع للحاج (حلاوة السلامة) .. وحلاوة السلامة هذه تتفاوت من شخص الى آخر فتبدأ من ربع الجنيه وتصل فى بعض الأحيان الى الخمسة جنيهات ! .. لكن الحاج أحمد لا يلح .. كل ما يدفع اليه (بركة) .

***

دارت بنا المركب حول شاطئين من شواطىء الجزيرة .. اتجهت شمالا فى أول الامر ثم استدارت مع النيـل لتتجه الى

الغرب ·· ومررنا على جزيرة (عيسى) احــدى الجزر الثـــلاث الصغيرة التى استولت عليها جزيرتنا فى سنوات (الفتح !) .. وأمام شــاطئها وقفت عــدة مراكب كبــيرة فبدا منظرها وكأنها بعض قطع الاسطول تقف امام احدى قواعدها البحرية الهامة !

ورست بنا المركب قبالة (نجعنا) فى نصف الجزيرة الغربى .. وظهر نجعنا ببيوته السمراء ذات الطابق الواحد .. وفى وسطه تماما ظهرت (الخيمة) ـ التى تعتبر ملكا للقبيلة كلها ـ بأعمدتها الحمراء الجميلة وسقيفتها العــالية ·· وعنــدما وصلت الى الساحة الكبــيرة التى تقع امام الخيمــة رحت اتطلع الى ماحولها من جديد .. هذه هى حجرة (القهوة) تقوم فى الطرف الجنوبى للساحة .. وبجوارها مربط (الركايب) وكأنه يستعد لمطــايا الضيوف من أبنــاء القبائل الاخرى ·· وهذه هى شجرة (اللبخ) ذات الظل الغزير تتوسط الساحة وقد امتدت فروعها فى كل اتجاه وكأنها أذرع ممدودة ترحب بى ·· أوحشتنى والله خيمتنا التى لا أراها الا مرة واحدة فى السنة ولأيام معدودات ·· خيمتنا الحبيبة .. رمز قبيلتنا .. التى تشــهد افراح القبيلة واحزانها وتعقد فيهــا مجالس الصلح ويحتفل فيهــا بالمواسم والاعياد .. دخلتها وكأننى أدخل بيتى !

❋❋❋

قضيت فى الخيمة حوالى أربع ساعات لا أفعل شــيئا غــير الوقوف والجلوس بمعدل مرتين فى الدقيقة .. ما ان انتهى من السلام على أحد أفراد قبيلتنا حتى يظهر آخــر عند البــاب الرئيسى للخيمة ·· فأقف من جديد وأنتظره حتى يقطع المســافة بين الباب والســقيفة .. ثم يقطع الطرقة الموصلة الى السقيفة حتى اذا اقترب منى اتقدم منه خطوتين تأدبا فيأخذنى أو آخذه بالأحضان ·· ثم يشد على يدى فى حرارة :

ـ بركة بالعافية ؟

– الله يبارك فيك
– أهلا ود العم
الجميع ينادونني بابن العم أو ابن الأخ .. وما ان ظهر عم عبد الله – جارنا وظريف قبيلتنا – بقامته النحيلة وسنواته الستين حتى صاح وهو يفرد ذراعيه في مرح :
– شهر مبارك .. هل هلالك
وبعد القبلات والاحضان تطلع الى في اعجاب وقال وما زالت يده ممسكة بيدي :
– كبرت والله يا ابن الكلب !
شعرت بسعادة لامثيل لها بين قومي .. عواطفهم الصادقة لا يتطرق اليها الشك .. ان سلم عليك احدهم في حرارة .. فان هذه الحرارة ترجمة صادقة لعواطفه .. جزيرتي هي المدرسة البسيطة التي اتعلم فيها الصدق مع نفسي وهي بخلاف مدرسة المدينة ذات الحرارة المفتعلة التي نستقبل بها من نرجو خيرهم أو نخشى شرهم .
قضيت حوالى الأبع ساعات في الخيمة استمتع بحرارة القلوب البسيطة الصافية ..
وصوت عم عبد الله يرن في اذني :
– آنست في بلدك يا سيد عمك
– الله يآنسك برحمة سيدك !
بعدها ذهبت الى البيت كي اسلم على والدتي واختي الوحيدة (نجلة) .. ولم أكن قد سلمت عليهما بعد .
استقبلتني امي – كالعادة – بالاحضان والدموع .. ابنها الوحيد الغالي الذي كبر وقسا قلبه وأحب بلاد الغربة التي تختلط فيها النساء بالرجال – على حد تعبيرها .
أنا لا أرى أمي – منذ طفولتي – الا في الاجازات الدراسية .. حتى بعد ان حصلت على وظيفة .. كانت بالاسكندرية .

وما ان فرغت من السلام على أمي وأختي حتى دخل علينا ابى .. وسألته مستفسرا عما دعاه الى ارسال برقيته .

فقال لى :

ــ لتتزوج !

قلت فى دهشة وسرعة من لدغته عقرب :

ــ اتزوج ؟

قال في بساطة .. وملامح وجهه التى تقبل التشكيل لعكس الطيبة والهدوء بنفس القوة التى تعكس بها التعبيرات الصارمة :

ــ نعم .. هل فى الامر غرابة ؟

قلت وانا اشفق من الخوض فى مناقشة سأكون فيها خاسرا حتما

ــ لا غرابة .. لكن .. اقصد .. احب ان اقول ان الامر يحتاج الى تفكير .

قال وكأنه يخاطب طفلا لم يعرف بعد معنى للحياة وابتسامته الأبوية تطل على فى اشفاق :

ــ الزواج ياولد يحتاج الى تفكير ؟!

قلت وأنا أدعو الله أن يمر الموقف بسلام :

ــ اقصد الاستعداد

ثم استطردت وأنا أزدرد ريقى :

ــ الاستعداد للزواج .. فهذا ليس بالشىء السهل

فلوح بيده فى استهانة وقال :

ــ لا تحمل هما .. انا مستعد !

شعرت بسرور وخوف معا .. وتخيلت نادية تجلس بجوارى فى ثياب العرس وتهمس فى اذنى ــ كعادتها ــ دون ان يلمحها أحد « دمك ثقيل » .. وقلت لأبى :

ــ انا عارف .. ربنا يبارك فيك .. لكن اقصد الاستعداد الذى يدخل ضمنه اختيار العروس المناسبة .

قال وكأنه يزف الى بشرى :

ـ العروسة موجودة !

جمدتنى هذه الكلمة .. صعقتنى .. مرت ثوان لم اشعر فيها لا بالزمان ولا بالمكان ولا بما اذا كنت أحلم ام أن هذا الذى اسمعه حقيقة واقعة .. لست أدرى كم مر من الوقت قبل ان اسمع صوت أبى وكأنه يأتينى من بئر عميق :

ـ فيم تفكر ؟ قلت العروسة موجودة ٠٠هل عندك حجة جديدة؟

قلت وقد خيل الى ان صوتى قد تحول الى ما يشبه الحشرجة :

ـ من هى ؟

قال فى ثقة من يقدم الى مفاجأة سارة :

ـ بنت عمك .. سلمى

انتابنى الغضب ٠٠ حاولت أن أكتمه كيلا يلون نبرات صوتى ٠٠ فقلت :

ـ لن اتزوج

قال وقد بوغت بأن أمرا أصدره على وشك أن يخالف .. فاحتد صوته كمن يدافع عن مبدأ :

ـ لن تتزوج ؟ .. وهل نحن على هواك ؟!

ولم أرد .. لذت بالصمت وأن كان باطنى يغلى .. كنت اعرف ان الاستمرار فى المناقشة سيزيد هياجه .. فاستطرد يقول :

ـ لم يبق الا هذا .. اقول له تزوج يقول لى لا !

ثم صمت برهة ٠٠ وقال لى وقد رق صوته فى سرعة عجيبة:

ـ الامر خطير .. اخطر مما تظن .. اسأل امك عن أهمية هذا الزواج ٠٠ وبعدها أنا واثق انك ستسارع الى الزواج من بنت عمك .

قال هذا .. ثم تركنا وخرج

***

الفصل الثالث

جلست على سرير الحبال (العنجريب) القريب من الباب ٠٠ واشعلت لنفسى سيجارة .. وتقدمت منى أمى ووجهها الذى يحمل الكثير من آثار جمال قديم ، يبدو تعسا لتعاستى ٠٠ جلست بجوارى ووضعت يدها على كتفى برفق وقالت فى حنان ٠

ـ حمدا لله على سلامتك ٠

وجاهدت أن يكون صوتى طبيعيا وأنا أقول :

ـ الله يسلمك ٠

كانت والدتى تقف فى صفى فى كل ما يدور من خلاف بينى وبين الوالد ٠٠ الا انها لم تكن تستطيع اعلان رأيها صراحة أمام الوالد ٠٠ لذا فقد توقعتُ بمجرد جلوسها بجوارى أن تبدأ ـ كالعادة ـ فى التخفيف عنى وتهوين الامر على ٠٠ مع تأييد موقفى فى السر ٠٠ ولم أكن لحظتها مستعدا لتقبل مواساة أو تخفيف ٠٠ كنت قد عقدت العزم بينى وبين نفسى على رفض هذا الزواج ولتنطبق السماء على الارض ٠٠ لكننى فوجئت بأمى تقول :

ـ أبوك عنده حق !

فالتفت اليها بسرعة وقلت فى استغراب :

ـ ماذا تقولين ؟

فرمشت بعينيها كمن تتفادى نظراتى التى يبدو انها كانت حادة وقالت مؤكدة :

/

- عنده حق !

قلت فى حدة :

- أى حق ؟

قالت فى ثقة :

- سأحكى لك ٠

قلت فى نفاد صبر

- احكى !

وبدأت أمى تتكلم ٠٠ قصت على ما قف له شعر رأسى وطاش له صوابى ٠٠ فهمت منها أن (سلمى) زفت الى شاب يدعى عباس من قبيلة (البراطيم) - القبيلة التى ينتمى اليها العمدة - وكان الشاب من ذلك النوع الأبله (المدروش) ٠٠ وكان مركز أسرته شفيعا له عند عمى - والد سلمى - فى الزواج منها ٠٠ وفى ليلة الدخلة خرج الشاب يصيح فى لوثة ليقول انه وجدها غير عذراء ٠٠ وجزعت الفتاة فهربت الى بيت عمها (بيتنا) لتحتمى به من غضبة الاهل - ولم تغادره الا أمس - ولم يقتنع أحد من الاسرة أن ابنتهم غير عذراء ٠٠ الا أن أهل القرية - طبعا - لم يروا هذا الرأى ! ٠٠ وبعد دراسة الموقف من جميع وجوهه اتفقت الأسرة على أن تبرق الى لأحضر فورا وأمحو العار الذى قد يلحق بالأسرة وذلك بالزواج من سلمى ٠

وفهمت من أمى أيضا ان عدة شبان من قبيلتنا أبدوا استعدادهم للزواج من سلمى ٠٠ لكن والدى - وليس والدها - رفض رفضا باتا ٠٠ وأبلغهم - بصفته عميد الاسرة - انه لا يسمح لأحد أن يتفضل على الأسرة بمحو عارها ٠٠ لأن العار أولى به أهله ٠٠ ولم يكن (أهله) غيرى أنا !

استمعت الى القصة من أمى بلب شارد وعقل مذهول ٠٠ هذا آخر ما كنت انتظره أو اتوقعه ٠٠ اذن فالمسألة أخطر بكثير مما كنت

أظن ٠٠ ان أسرتى يتهددها العار لا سيما فى قرية ترقد فى الصعيد الأقصى كقريتى ٠٠ لن تقوم لمثل هذه الأسرة قائمة ٠٠ لن يهنأ لها عيش٠٠ لا يستطيع أحد من رجالها أن يرفع رأسه او يخاطب احدا أو يغشى مجلسا ٠٠ ويل لرجال الأسرة من سفهاء الاسر والقبائل الأخرى ٠٠ وويل ثم ويل لنساء الأسرة من نساء القرية ٠٠ فالنساء أكثر تفرغا للخوض فى مثل هذه الامور من الرجال ٠٠ لا ٠٠ لا بد من التضحية لانقاذ الأسرة ٠٠ هى أسرتى ٠٠ أعطتنى الفرصة للتعليم والرقى ٠٠ حقا ان نشأتى بالاسكندرية واختلاطى بأوساط المثقفين قد بدلا الكثير من قيمى وأفكارى ٠٠ لكن هذا يتضاءل اذا قورن بعاطفتى تجاه الأسرة .. وما لها سلمى ؟ .. اليست جميلة ؟ .. انها جميلة جدا ٠٠ خمرية اللون ٠٠ مستقيمة الانف ٠٠ حلوة العينين ٠٠ فى شفتيها رقة ٠٠٠ وفى صوتها رخامة ٠٠ جسمها الذى يميل الى الطول ممتلىء قليلا ٠٠اذا ابتسمت ظهرت لها غمازتان تخلبان اللب وتذهبان بالعقل ٠٠ لكن عقلى أنا ـ قاتله الله ـ لا يديره الجمال وحده ٠٠ لا بد من أشياء أخرى تساعد الجمال حتى يستطيع أن يغزو قلبى ٠٠ أشياء يقتنع بها عقلى فيرسل اشارة الى قلبى حتى يبدأ فى الخفقان ! .. سلمى لا تصلح لى .. فكيف أتزوج منها .. كيف أتزوج ممن لم تفتح فى حياتها كتابا أو مجلة أو حتى تفرق بين الألف والنبوت ؟ ٠٠ ثم كيف أصحبها معى الى الاسكندرية وأتبادل واياها زيارة الاصدقاء والزملاء وزوجاتهم وهى التى لم تخرج من القرية فى حياتها الا الى الشاطىء المقابل لجزيرتنا ٠٠ مرة كل عام فى أيام مولد الشيخ (عامر) وبصحبة رجال الأسرة ونسائها ؟ ٠٠ كيف أسلم من لسان صديقى السكندرى (محمود النبراوى) الذى يسخر من طوب الارض ٠٠ اذا رآها تجرر ملاءتها المصنوعة من صوف النعاج والتى تسحب وراءها التراب على بعد متر منها ٠٠ فتبدو وكأنها « أسد يجرر حية رقطاء » على رأى الشاعر ؟

شتان يا سلمى ما بينك وبين نادية ٠٠ نادية التى تناقش معى الكتاب الذى تقرؤه ٠٠ وتقول رأيها فى الفيلم الذى تشاهده ٠٠ وتتذوق الموسيقى الشرقية والغربية ٠٠ وتطرب ايما طرب لبيت جميل من الشعر ٠٠ وأهم من هذا هى الوحيدة التى تستطيع آن تعيد الى الابتسامة فى أحرج الاوقات التى ينتابنى فيها الحزن ٠٠ أين أنت يا نادية ؟ ٠٠ لشد ما احتاج اليك الآن وانا اشد الناس تعاسة وحزنا ٠٠ انت فنانة يا نادية ٠٠ عاشقة الفن ٠٠ هل فى بنات حواء مثلك ؟ ٠٠ متى القاك ؟ لقد اشتقت اليك ولما يمض على فراقى لك الا يوم وبعض يوم ٠٠ أين تلك الابتسامة الودود ؟ ٠٠ سأراها قريبا يا أعز الناس ٠٠ سلمى ؟ ٠٠ سلمى من ؟ ٠٠ أنا أتزوج من سلمى ؟ أنا ؟ ٠٠ تلك التى أراهن انها لم تسمع بشىء اسمه الموسيقى فى حياتها ؟ .. لتذهب هى وأبوها وأسرتها الى الجحيم .. وليركبهم العار وليدفنوا أحياء .. الم يقولوا ان كثيرين من ابناء القبيلة تقدموا للزواج منها وفى هذا محو لعارهم .. لم لا يزوجونها من أحدهم ٠٠ فهم أقرب الى عقليتها منى ٠٠ هى ستشقى معى بقدر ما سأشقى معها .. اجل .. هذا هو الحل السليم .. لتتزوج سلمى من احد أبناء القبيلة .. ولأترك انا فى حالى اعيش حياتى كما احب .. فلن اعيش الا مرة واحدة .

قطعت على أمى أفكارى بقولها :

ــ أظنك اقتنعت ؟

لوحت بيدى وقلت فى ضيق :

ــ اقتنعت ؟ .. من قال لك ؟ .. لن أتزوج لا من سلمى ولا من غيرها .

قالت أمى فى دهشة :

ــ لن تتزوج ؟ ٠٠ كيف ؟

قلت وأنا انفخ :

ـ أنا حر !

وصمتت أمي .. ومع أنها كانت تنزل دائما عنـــد رأيي .. في الحالات التي تعرف أنهـــا تسبب لي ضيقا .. الا انها لم ترتح لاجابتي .. أسندت رأسها على راحتهـــا وراحت تنظر الى (برش) صغيرة ـ تستخدم للصلاة ـ علقت على الحائط .. وهنا تقدمت منا أختي (نجلة) التي كانت قد أخلت لنا الجو أنا وأمي وتشـــاغلت باعداد الشاي .. قالت تخاطب أمي وقد سمعت طرف الحديث :

ـ هو عرف ؟

ردت أمي في لهجة من أصيب بخيبة أمل :

ـ عرف .

فتقدمت مني نجلة وقالت في انزعاج :

ـ أليس من العيب أن تقول مثل هذا الكلام يا حامي الديار ؟

ديار ! .. أي ديار هذه التي أحميها خرب الله دياركم ؟ .. هل حماية الديار عندكم ان أرغم على الزواج من واحدة عندها أكثر من فرصة للزواج ؟ .. وان أربط نفسي ـ بلا مبرر ـ بانســـانة لا تربطني بها أية رابطة عقلية أو عاطفية غير رابطة النسب ؟ .. ثم من ادراني ان سلمى هذه تود الزواج بي ؟ .. حقا انها لا تملك حق الرفض أو القبول ككل فتيات القرية .. لكن ألا يحتمل أنها تضمر لي كرها ؟

قلت لأختي :

ـ أنا أتزوج عندما أريد ذلك .. ومن تصلح لي .

قالت في لهجة لم تخل من فخر :

ـ وسلمى ما لهـا ؟ .. ألا تصلح لك ؟ .. سترث من أبيها سبعة أفدنة !

قلت فى ثورة :

ـ لتذهب هى وأفدنتها الى ستين داهية !

فجابهت ثورتى بثورة مماثلة مستغلة فى ذلك سلطة السنوات العشر التى تكبرنى بها وقالت :

ـ لا (تفترى) على نعمة ربنا ٠ لو أدخرت طول عمرك لما جمعت ثمن سبعة قراريط !

فتدخلت أمى وقالت فى اعياء :

ـ دعونا من حديث القراريط الآن

فتناولت نجلة طرف الخيط وقالت لى :

ـ حقا ٠٠ المسألة أهم من الأفدنة والقراريط ٠٠ المسألة تتعلق بشرف الاسرة ٠٠ حياتنا تتوقف على زواجك من سلمى ٠٠ والا فالعار الذى ما بعده عار !

قلت فى ضجر :

ـ لا أرى عارا على الأسرة ٠٠ زوجوها من أى أحد ٠٠ ألم يتقدم للزواج منها كثيرون ؟

فضربت نجلة صدرها بيدها ٠٠ وشهقت وكأنها سمعت بأن الفيضان قد حطم سد القرية وزحف على البيوت فقوض أركانهـــــا وقالت :

ـ ماذا قلت ؟٠٠ بم نطقت ؟٠٠ ألا تستحى من نفسك ؟ كيف تواجه الناس وبنت عمك قد (ستر) عليها غيرك ٠٠ بأى وجـــه ستلقاهم ٠٠ هه ؟ ٠٠ لماذا لم ترد ؟

وهنا أحدثت ضبة الباب صوتا ٠٠وسرعان ما فتح الباب ودخل أبى ٠٠ وصمتت نجلة صمتـــا تاما ٠٠ حبست انفعـــالها الشديد بمجرد رؤيتها له ٠

وتقدم منا أبى٠٠ فوقفت له .. ووقفت أمى.. وكانت نجلة

واقفه قبالتى فأخلت له الطريق ووقفت بجانب أمى ٠٠ ومر أمامنا وقال دون أن ينظر الينا أو يتوقف عن سيره مما يدل على انه سمع بعض كلمات نجلة :

– سلام عليكم

فرددنا فى نفس واحد :

– وعليكم السلام

فواصل سيره ناحية حجرته وقال مخاطبا أمى :

– أظنه لم يوافق ؟

فقالت أمى وصوتها يحمل نبرات رسول السلام

– ربنا يهديه !

فرد عليها وهو يدفع باب حجرته فى لهجة لم تخل من تهديد

– الصباح ٠٠ رباح ٠

***

أويت الى فراشى وأنا فى غاية التعب والارهاق ٠٠ ومع اننى لم أذق للنوم طعما فى الليلة الماضية – ليلة القطار – الا اننى فشلت فى أن أجذب النعاس الى عينى ٠٠ كانت صورة اللقاء العاصف الذى ينتظرنى مع أبى فى الصباح ٠٠ كافية لطرد كل محاولة للنوم ٠٠ بل اننى فقدت حتى مجرد التفكير السليم ٠٠ ومرت صور حياتى بمخيلتى مرورا سريعا ولكن فى وضوح ٠٠ أنتمى الى أسرة لا تفهمنى ولا أهضمها ٠٠ أشعر كأننى أعيش بشخصيتين مختلفتين ٠٠ شخصية يعرفها زملائى فى العمل وأصدقائى ومعارفى بالاسكندرية حيث نشأت وتعلمت ٠٠ وشخصية أخرى يعرفها أبى وأهلى وأبناء قبيلتى ولا تمت للشخصية الأولى بصلة ٠٠ فقد نشأت بالاسكندرية مصادفة ٠٠ نشبت معركة حامية بين قبيلتنا وبين قبيلة أخرى سقط فيها الكثير من الجرحى ٠٠ اتهم أحد الجرحى أبى بانه هو الذى جرحه



بنبوته أثناء المعركة .. وتوعده بأنه سيحرق قلبه .. وفسر أبى كلمة (قلبه) على انه يقصدنى أنا .. لا سيما وأن الرجل كان سيىء الخلق معروفا بالغدر .. ولما كان أبى لم ينجب من الابناء الذكور غيرى .. فقد انزعج انزعاجا شديدا .. ودفعه خوفه على الى أن يبعث بى الى قريب لنا يقيم بالاسكندرية بصفة دائمة .. أرسلنى عنده كى أمكث بعض الوقت الى أن ينجلى الموقف فى القرية .. وكنت فى التاسعة من عمرى .. وكان لقريبنا هذا ابن فى مثل عمرى يذهب الى المدرسة .. فألحقنى بنفس مدرسة ابنه .. وشغفت بالحياة الجديدة ورجوت قريبنا أن يتوسط لدى أبى كى أقيم فى الاسكندرية بصفة دائمة وأن أواصل الدراسة .. وقبل أبى على مضض بعد جدال طويل .. لأن التعليم — فى رأيه — يفسد الاولاد ويجعلهم يتعالون على ذويهم .. ولما قطعت شوطا فى التعليم .. رحت أجاهد طوال فترة دراستى فى أن أثبت لأبى عكس نظرته الى التعليم (وفساده !) .. فكنت فى الاجازات الدراسية التى أحضر فيها الى البلد .. اتجنب كل ما يثير مخاوفه لكيلا يلحظ أى تغيير فى سلوكى .. لا سيما وانه هددنى مرة بمنعى من مواصلة الدراسة حينما أخطأت وقلت له ان الارض كروية وانها تسبح فى الفضاء مع مجموعة من الكواكب .. اذ انها من رأيه يحملها ثور كبير على قرنه .. ولو كانت معلقة — كما أقول — لوقعت ! .. ولم يهدأ له بال ويطمئن على سلامة المناهج التى وضعت لتعليمنا الا بعد أن اعترفت له بأننى كنت أمزح .. وانها فعلا يحملها ثور قوى ينتمى الى قبيلة الثيران الاسبانية! .. وكان اذا رآنى اخلع البنطلون وارتدى الزعبوط الواسع وأضع على راسى العمامة الكبيرة التى تزيد على الثلاثة أمتار .. فوق الطاقية الملونة .. واحمل الشمروخ الشوم الذى يحمله شبان القبيلة الأقوياء .. يسر لذلك كثيرا .. أكثر من

سروره بنجاحى فى نهاية العام !

ومع الأيام أصبحت وكأننى شخصيتان مختلفتان ٠٠ شخص لا يقدم على أمر بغير اقتناع ٠٠ يعشق الأدب والفن ٠٠ يحترم رأى غيره .. يعتقد أنه يعيش فى القرن العشرين طالما كان بين أقرانه فى الاسكندرية ٠٠ وشخص آخر يتصرف فى حدود معينة رسمتها له تقاليد وضعت منذ عدة قرون ٠٠ ويؤمن ـ ضمن ما يؤمن بكرامات مجذوب القرية ولى الله (فراج !) ٠٠ طالما كان موجودا بالقرية ٠

فكيف السبيل الآن الى الغاء الشـــخصية التى يعرفها الأهل وفرض الشخصية الحقيقية ؟ ٠٠ يا له من امتحان رهيب هـــذا الذى أنا مقبل عليه ٠

* * *

الفصل الرابع

استيقظت فى الصباح مذعورا على أصوات نسائية تصرخ وتولول .. فهرولت الى خارج الحجرة فرأيت أمى تقف على عتبة الدار وصراخها المتقطع يصل الى عنان السماء .. فسألتها فى ذهول

ـ مالك ؟ .. ماذا حدث ؟ .

قالت وهى تتردد بين الاجابة على سؤالى أو مواصلة الصراخ :

ـ لا أدرى .. سمعت الصراخ فصرخت .. يبدو أنها (شكله) ! !

فسارعت بالخروج .. وأنا بملابس النوم ـ الى الدرب الصغير الذى يفتح عليه باب بيتنا .. وواصلت السير نحو مصدر الصوت الى نهاية الدرب حيث الساحة الكبيرة التى تتوسط النجع .. فرأيت كل من فى النجع يهرول مذعورا .. النساء تولول .. والرجال تجرى .. وعرفت بالبداهة أن معركة مع قبيلة أخرى على وشك الوقوع .. وأن هذا الصراخ من النساء ما هو الا صفارات الانذار التى يهرول بعدها الرجال لاحضار النبابيت ! .

وعرفت أيضا من طريقة الهرولة أن المعركة القادمة مع قبيلتنا معركة دفاعية وليست هجومية .. فلو كانت هجومية لكان لها استعداد خاص يسبق الصراخ بأيام أو على الأقل بساعات .. ولكان كل رجل وشباب فى القبيلة على علم بها .. ولكن هذه المرة يبدو الموقف واضحا بأن النجع مهدد بغزو خارجى !.

ورحت أسأل كل من أصادفه يهرول بنبوته :

ـ مع من ؟ ·· وما السبب ؟

فكانت الاجابات مبتورة ومتعجلة :

ـ مع البراطيم !

ـ جاد هو السبب !

وتكررت نفس الاجابات من كل من سألتهم ·· ورأيت عم عبد الله قادما نحوى يهرول فى اتجاه بيته الملاصق لبيتنا ·· كان يهرول فى خفة ونشاط على الرغم من كبر سنه ·· فسألته :

ـ ماذا حدث يا شيخ عبد الله ؟

فلم يرد على ·· استمر فى هرولته الى أن دخل البيت ·· وما لبث أن عاد بعد قليل يحمل نبوته الأحمر وقد خلع زعبوطه وبقى بالقميص الأبيض فوق السروال الطويل ورأسه عار الا من الطاقية ذات اللونين الاصفر والاخضر ·· سألته مرة أخرى :

ـ ما سبب هذه (الشكله) ؟ ·· ومع من ؟

فالقى على نظرة متعجلة ومضى فى طريقه دون أن يرد ·· فاضطررت أن أمسك طرف نبوته لأوقفه ·· فقال لى وهو يحاول أن يخلص نبوته اللامع الحمرة لكثرة طلائه بالحناء من يدى :

ـ البراطيم ·· أولاد الكلب !

ـ ما لهم ؟

سمعنا انهم فى طريقهم الى نجعنا · ·لكن على من ؟ ·· ملعون أبوهم وأبو عمدتهم !

ـ لكن لماذا ؟ ·· ما السبب ؟

قال وعنقه النحيل ينتفخ مع كلماته السريعة المنفعلة :

ـ هل تعتقد انهم يغلبوننا ؟ ·· لأنهم أكثر منا عددا يظنون انهم يغلبوننا ؟ ·· هذا بعدهم ·· أولاد الكلب !

ـ أنا أعرف انهم أولاد كلب ·· لكن ما السبب ؟ !

ـ السبب هو جاد ·· تعارك مع عباس فى الحقل ووصل

الخبر الى البراطيم فقرروا تاديب جاد وقبيلة جاد ٠٠ لكن براطيم من ؟ ٠٠ سنريهم شغلهم ٠٠ سنعلمهم كيف يكون القتـال ٠٠ على الطلاق سنؤدبهم !

قال هذا واشتبك معى فى محاولة مستميتة لتخليص نبوته من يدى ٠٠ فقلت له :

ـ لو حذفت الشتيمة من كلامك لأفهمتنى بما حدث فى نصف هذه المدة ٠٠ يا رجل تكلم بلا شتيمة ٠٠

فتلفت حـوله يتـطلع الى الذين يهرولون بنبابيتهم وكأنه يحسدهم على حريتهم ٠٠ وقال وقـد تصـبب منه العرق فلمعت بشرته السوداء :

ـ منذ عدة أيام حدثت مناقشة حادة بين عباس ـ زوج ـ سلمى السـابق ـ وبين جاد ٠٠ فقال عباس له : « لو كنتم رجالا لقتلتم بنتكم العاهرة ٠٠ »

وضرب عم عبد الله صدره بيده وزمجر فى غضب :

ـ بنتنا نحن عاهرة ؟ ٠٠ الأهبل ابن الحمار ؟ ٠٠

ثم خفض صوته قليلا وقال :

ـ طبعا جاد لم يرد عليه ٠٠ خشى ان هو تشـاكل معه أن يسأل النأس ـ فيما بعد ـ عن سبب (الشكلة) فيعرفون أن فيها مثل هذا الـكلام الذى يجلب العار ٠٠ وطبعا أنت عارف أن أرض جاد تقع بجوار أرض عبـاس ٠٠ فحدثت مشادة بينهما ـ اليوم ـ على سقاية الأرض ٠٠ وتماسكا بالأيدى واستطاع جاد ـ سيد عمه ـ أن يوقع عباسا فى الطين ويغرسه فيه وينهال عليه لكما وصفعا ٠٠ ولولا أن سارع جيرانهم لانقاذه لقضى عليه ٠٠ جاد سبع والله ٠٠ على الطلاق سبع ٠٠ براطيم من أولاد الكلب ؟ ٠٠ اترك نبوتى ٠٠ اتركه ٠٠ هل تريدهم أن يدخلوا علينا النجع ؟ ٠٠ اترك النبوت ٠٠ ملعون أبو البراطيم وأبو العمدة ٠٠

واجتاحنى غضب وأنا أترك عم عبد الله وأتجه ناحية البيت لاحضار نبوتى ٠٠ ووجدتنى أردد بينى وبين نفسى « براطيم من ؟ ٠٠ » ٠٠ لن يستطيع أحد أن يقتحم علينا نجعنا مهما بلغت قوته ٠٠ حتى قبيلة البراطيم نفسها التى تفوقنا عددا وعدة والتى تملك الثروة والقوة لن تستطيع أن تقتحم علينا نجعنا وفينا عرق ينبض ! ٠٠ اننا نغضب ونحمل السـلاح اذا ما تعرض الوطن الأكبر للعدوان الخارجى ٠٠ وما الفارق هنا بين الوطن الأكبر وبين (النجع) ٠٠ وطننا الأصغر ؟ ٠٠ ثم ان المسألة تخص سلمى ! ٠٠ قبيلتى كلهـا تقف الآن للقتال ربما الى حد الموت بسبب كلمة تمس ابنة عمى ! ٠٠ أهذا هو سر غضبى ؟ ٠٠ هل معنى هذا اننى أصبحت مسئولا عن سلمى ؟ ٠٠ لا ٠٠ سلمى تستطيع أن تتزوج وتعيش فى هدوء ٠٠ ما سر غضبى اذن ؟ ٠٠ الذى اغضبنى حقا هو غرور البراطيم ٠٠ فالبراطيم قبيلة مغرورة ٠٠ يخيل اليهـا أن العراك مع فرد منها ـ حتى ولو كان مخطئا ـ أمر خطير يجب ألا يمر بسهولة ٠٠ لا مانع عندها من أن تسيل الدماء ما دامت هى الغالبة فى الحالتين .. فى حالة القتال لتعدادها الكبير ٠٠ وفى حالة ما اذا رفع الأمر للقضاء لثروتها الواسعة ٠٠ كيف يمس أحد أفراد قبيلة البراطيـم العظيمة التى منهـا العمدة الذى يتربع على عرش الجزيرة وكأنه قيصر الرومان ؟ ٠٠ لكن براطيم من ؟ !

عدت الى البيت فغيرت ملابسى على عجـل ٠٠ وانطلقت الى الكوبرى الذى يمـر فوق الترعـة الكبيرة التى تفصـل نجعنا عن المزارع الشاسعة التى يقوم فى آخرها نجع البراطيم .. كان النبوت ينثنى فى يـدى فى مرونة لمبيته الدائم فى اناء الزيت ٠٠ أعجبتنى مرونته ٠٠ وعرفت أن أبى كان على حق حينما فرض على أن أتعلم القتال بالنبوت .. والا لجرحت الآن بمجرد دخولى المعركة من أضعف ضعيف فى البراطيم !

فوق الكوبرى لاحظت أن قبيلتنا قد وقفت فى صفين طويلين .. وصف ثالث صغير فى الخلف .. فوقفت أمام (حسب الله) .. فأشار الى الصف الثالث وقال لى : « قف هنا ! » .. فامتثلت لأمره بلا مناقشة .

وحسب الله هذا هو المختص بتنظيم المعـــارك التى تخوضها قبيلتنا .. هو بمثابة قائدها العسكرى .. لا يتدخل فى أى شأن من شئونها الأخرى الا كما يتدخل غيره ..أما اذا كانت هناك معركة مع القبيلة فهو وحده صاحب الشأن .. الجميع يطيعونه طاعة عمياء ويخضعون لأوامره بلا مناقشة .. وهو فى حوالى الأربعين من عمره .. طويل القامة .. متين البنيان .. جميل ملامح الوجه .. برع فى (الخطط العسكرية) فكسب الكثير من المعارك للقبيلة .. وهـــو أخطر من يقاتل بالنبوت فى قريتنا فى أوقات الحرب .. وأبرع من يلعب بالعصا فى أوقات السلم .

جاءت وقفتى فى الصف الثالث بجوار عم عبد الله .. أشار باصبعه النحيل صوب الصف الأمامى وقال :

– حسب الله جعل الصف الأمامى من الشـــبان الصغار .. وجعل الصف الثانى من الرجال الأقوياء .. لأنه لا يريد أن ينتظر البراطيم حتى يصلوا الى الكوبرى .

– كيف ؟

– الصف الأول سيهجم عليهم قبل أن يصـــلوا الى الكوبرى بمسافة كبيرة .

– لكن البراطيم سيدورون حولهم .. فالمزارع واسعة وصف البراطيم – لا شك – طويل

– اطمئن .. هو قال لهم بعثروا نظـــام البراطيم فقط .. وبمجرد أن تشعروا انهم سيدورون حولكم اهربوا بسرعة الى ما وراء الصف الثانى .

ثم ضحك عم عبد الله وقال فى اعجاب :

ـ فكرة جميلة والله ·· ألا ترى انه اختار الصف الاول كله من أولادنا الشجعان ·· المجانين ؟!

ثم عبس وقال فى أسى :

ـ قلت لحسب الله دعنى معهم فى الصف الاول ·· فقال لى لا ·· انت كبرت ·· نحن نحتاج اليك فى الصف الثالث ·· فقلت له سأقف فى الصف الثانى ·· قال لى الصف الثالث أحسن ·

ثم ضرب الارض بنبوته وقال فى ثورة :

ـ حسب الله يضحك على ؟ ·· الصف الثالث موته أحسن من حياته !

وشعرت بالخجل ·· فلم أكن أدرى ما هى مهمة الصف الثالث .. اذ اننى لم أشترك فى معركة من قبل .. فقلت لعم عبد الله :

ـ ما هى مهمتنا اذن ؟

قال فى سخرية :

ـ ليست لنا مهمة ·· الصف الثانى هو الذى سيتصدى للبراطيم ويمنعهم من اجتياز الكوبرى بعد هروب الصف الاول ·· مهمتنا ـ قال ـ مساعدة الصف الثانى ·· أى مساعدة هذه ؟ ·· هل نحن عيال ؟

فرغ حسب الله من التنظيم وراح يتفقد الصفوف وقد ارتسمت على وجهه الأسمر امارات الحزم والقوة .. ثم بدأ يخاطبنا فى نبرات طبيعية ولكنها حازمة :

ـ لا تخيفكم كثرتهم ·· قبيلة (الحمداب) لا يزيد رجالها على الخمسين رجلا ·· غلبوا قبيلة (الدراويش) التى يزيد عدد رجالها على المائة والخمسين رجلا ·· وقفوا أمامهم مثل الحديد وشتتوهم فى أقل من ساعة ·· وجرحوا منهم أربعة بينما هم لم يجرح منهم أحد ·· لماذا غلبوهم ؟·· لانهم لم يتأخروا الى الوراء خطوة واحدة··

ولماذا يتأخر الواحد ؟.. هل عمره سيطول اذا تأخر .. أو سيقصر اذا تقدم ؟.. العمر مثل الزرع .. يحصد عندما يأتى أوانه .. وكل شيء ينتهى لكن الكلام يبقى .. ستنتهى هذه (الشكلة) لكنها ستروى فى النجـوع .. قبيلتنا والحمـد لله لم تغلب أبدا .. البراطيم ناس يفترون على الخلق .. المفترى عليه الله .. سنغلبهم والله سنغلبهم !

كان حسب الله يتكلم فى حماس والجميع ينصتون له دون أن تتحرك فى أحدهم شعرة !.. واشـهد اننى كنت أضع طرف نبوتى على الارض وأتكىء على الطرف الآخر .. فلما سمعت كلمات حسب الله انتابنى الحماس فغيرت من وضعه بأن امسكته بوضع الاستعداد للقتال وتحرقت شوقا لقتال البراطيم !.. وتعجبت كثيرا من نفسى .. ترى .. لو ان أحـدا من زملاء العمـل أو أصدقاء الاسكندرية رآنى على هذا الوضع هل يصدق ؟.. ولو رأتنى نادية .. هل تصدق ؟.. أجل .. نادية تصدق!.. نادية فقط !.. فهى أعلم الناس بحقيقة مشاعرى .. بل يخيل الى أنهـا تشاركنى فى كل أحاسيسى !

ولمحت أبى يقف بجـوار حسب الله ويهمس له بكلمات بين الحين والحين وحسب الله يهز رأسه موافقا .. فقد كان أبى فى شبابه يقوم بنفس المهمة التى يقوم بها حسب الله الآن .. الا ان حسب الله يمتاز بالهدوء والرصانة وبخططه الحربية البارعة !

***

كانت أعيننا معلقـة ناحية الشرق حيث يقع الطريق الطرين الذى يشق المزارع .. والذى ستظهر منه قبيلة البراطيم .. كانت المزارع خالية تمـاما .. وفى الجانب الجنوبى للمزارع .. وقفت قبيلة (القاضى) القليلة العدد .. وقد نظمت صفها الصغير فى محاولة

ميئوس منها للفصل بين الفريقين اللذين ينتظر التحامهما ·· وجرت العادة أن تهرع القبـائل الاخرى الى الفصل بين الفريقين المتقاتلين بالقوة .. وذلك بمواجهة الفريق الأقوى ومنعه من الوصول الى خصمه ·· يحدث هذا دائما الا فى الحالات التى تكون فيهـا قبيلة البراطيم طرفا فى المعركة ·· اذ انها اعتادت اعتـمادا على قوتها ـ أن تكتسح كل من يقف فى طريقها ·· لذا فقد انتهت قبيلة القاضى من تنظيم صفها الضـئيل ·· واكتفت بالتفرج على جمال الطبيعة المتمثلة فى المزارع الخضراء ·· وكأنها مجموعة من مراقبى الهدنة تستعد لكتابة التقارير !

***

من بعيد ظهر شاب يهرول ناحيتنا ·· تابعناه بعيوننا الى أن وقف قبالة الصف الاول ·· ثم تقدم من حسب الله وقال له وهو يلهث :

ـ البراطيم رجعوا ·

وبدأت الصفوف تفقد نظامها لأول مرة وهى تتـحرك صوب الشاب ·· وسأله حسب الله فى دهشة :

ـ رجعوا ؟ ·· لماذا ؟

ـ العقلاء من كبار السن ضغطوا على الشبان فارجعوهم ·

ومرت فترة صمت قصـيرة تبودلت فيهـا النظرات بين أبناء قبيلتنا وبين حسب الله ·· وقال حسب الله للشاب متسائلا :

ـ والعمدة ؟

فتردد الشاب قليلا ثم قال :

ـ العمدة كان يريد القتال ·· لـكن شيوخ البراطيم اقنعوه بعقد (مجلس عرب) عند قبيلة أخرى ·· وقالوا له اذا فشل مجلس العرب افعل ما تريد !

ثم اقترب الشـــاب من حسب الله واسر له ببضع كلـــمات لم نسمعها ٠٠ وأشار حسب الله لنا بالعودة الى النجع ٠٠ فتفرقت صفوفنا الى كل اتجاه ٠٠ وقبل أن نصل النجع بقليل قال لى عم عبد الله وهو يعيد لف عمامته حول راسه بعد أن كان يربطها حول خصره أثناء استعداده للقتال ٠٠ قال لى :

- عرفت لك الخبر

- أى خبر ؟

قال دون أن يرد على تساؤلى :

- أتدرى من الذى أرسل هـــذا الولد الذى أخبرنا برجوع البراطيم ؟

- لا ٠

- أرسله الشيخ محارب

وأنا أعرف ان الشيخ محارب هو زعيم قبيلة (الكوامل) القوية التى تربطها بقبيلتنا أواصر القربى ٠٠ فقلت لعم عبد الله :

- وهل عرف الشيخ محارب (بالشكلة) حتى يرسله ؟

فرد عم عبد الله فى سرعة :

- عرف ؟ ٠٠ وهل تظن ان العمدة رجع لانه اقتنع برأى عقلاء البراطيم ؟ ٠٠ العمدة لم يرجع الا بعد أن أرسل اليه الشيخ محارب انذارا بأنه سيقاتل معنا اذا ما اشتبكت بيننا وبينه شكلة !

قلت فى دهشة :

- وما الذى جعل الشيخ محارب يفعل هذا ؟

- لأسباب كثيرة ٠٠ منها ان قبيلتنا وقبيلة الشيخ محـــارب من أصل واحد ٠٠ ومنها ان والدة جاد - الذى تسبب فى المعركة - من قبيلة الكوامل ٠٠ ومنها ان الكوامل والبراطيم أعداء !

ثم استطرد فى لهجة توحى بخطورة مايقول :

– والعمدة يعرف ان عدد رجال الشيخ محارب أكثر من عدد النخيل فى بلدنا ·

ثم لوح بقبضة يده وقال :

– الشيخ محارب طول عمره يحب الشكل ·· سبع ابن سبع ·· على الطلاق سبع !

❋ ❋ ❋

الفصـل الخـامس

كان لاحديث للنجع طوال ذلك اليوم الا عن المعركة التى لم تتم .. وحينما دخلت المنزل وجدت أبى قد سبقنى الى هنـاك وبصحبته رجـــلان من قبيلتنا .. فرشت لهم احدى (البروش) المصـــنوعة من سعف النخيـــل .. ووضعت بينهم مائدة صغيرة قصيرة الارجل .. ومضوا فى احتساء الشاى والحـــديث عن الاحداث التى مرت بقبيلتنا فى الساعات القليلة الماضية .. وقد أبدوا ارتياحهم للاستعدادات العسكرية الحسنة التى ظهرت بها القبيلة في هذا اليوم الذى دخل تاريخ القبيلة . وتحمس احـد الرجلين فضرب المائدة الصغيرة بقبضة يده ضربة قوية اهتزت لها صينية الشاى وكأنها تحتج .. وقال مخاطبا ابى :

— ليتهم جاءوا .. لكنهم خافوا !

وبعد قليل انصرف الرجلان ووجدت نفسى فجأة مع أبى وجها لوجه .. فانقبض صدرى لشعورى باننى مقبل على مناقشة عاصفة قد يتقرر فيها مصيرى كله .. اما ان انفذ مطالب العائلة واخضع لمشيئتها وفى هذا الغاء كلى لشخصيتى .. واما ان ارفع راية العصيان واستعد لمقاطعة الاهل ومغادرة الجزيرة الحبيبة الى غير رجعة .. أمران أحلاهما مر .. شعرت برأسى يدور وكأن حرارتى ترتفع .. وبادرنى أبى قائلا :

— لم اسمع رأيك !

قلت وأنا أتهيأ للنضال :

رأيى قلته !
قال وقد عقد ما بين حاجبيه :
ــ متى قلته ؟ .. ولمن ؟ .. وكيف قلته بهذه السرعه ؟!
ولم ادر ماذا اقول .. فقد خيل الى انه عرف رأيى منذ فاجأنى اتحدث مع أمى واختى ليلا .. فقلت فى هدوء وصوتى لا يكاد يسمع :
ــ ظننتك عرفته
فقال مستغربا :
ــ انا عرفته ؟ .. متى .. هل رأيتك الا الآن ؟
ثم استطرد بعد فترة صمت قصيرة :
ــ كان منظرك يعجبنى وانت تشمر عن ساعديك وتحمل النبوت وتقف فى الصف مع ابناء عمومتك مثل الأسد !
ثم اخرج علبة (المدغة) وتناول منها كمية فى حجم القرش حشرها بين اسنانه وشفته السفلى .. وبصق بصقة تدل على اعتدال المزاج وقال :
ــ هل تعرف اننا كنا سنغلبهم لو انهم جاءوا ؟ .. عدم مجيئهم انقذهم من الفضيحة .. اليس كذلك ؟ .. أم ان لك رأيا آخر ؟ .. أريد أن أعرف رأيك .. لا تقل انك قلته !
فقلت فى لعثمة وأنا أتنفس الصعداء :
ــ طبعا .. طبعا .. كنا سنغلبهم حتما !
قال فى حماسة :
ــ نغلبهم فقط ؟ .. يارجل قل غير هذا !
ثم اعتدل فى جلسته وقال وقد علا صوته وازدادت حماسته :
ــ كنا سنخسف بهم الأرض .. سنوقع بهم هزيمة يلاحقهم عارها الى الجيل السابع ! .. ونضيف الى مفاخرنا مفخرة جديدة تفخرون بها من بعدنا ! .. ونعيد الى الأذهان مجد قبيلتنا القديم !

ثم تنهد وهو يصلح من أمر الوسادة التى اسـندها على الجدار .. واتكأ بكوعه عليها وقال :

ـ رحم الله أيام زمان ٠٠ قبل أن يأتى الجيـل الذى أنت منه ويأتى بالنكبة معه ٠٠ كانت قبيلتنا تخيف أعظم قبيلة فى البلد .. لعن الله الفيضان .. حطم بيوتنا واتلف مزارعنا فشتت رجالنا الى مصر ٠٠ كنت أنت أيامها فى السادسة من عمرك ٠٠ الم أقل لك ان جيلك جاء بالنكبة معه ؟

قلت مجاملا :

ـ حقا .. جيل مشئوم !

قال ـ وقد استبدت به الرغبة فى الحديث كعادته عندما يشغله أمر :

ـ هل رأيت تلك الخطة التى وضعها حسب الله ؟ .. ياله من ولد مفكر ذى عقل كبير .

وهنا جاءت امى تحمل صينية صغيرة عليها براد من الشاى لاننى لم ادرك الشاى الذى صنع للرجلين .. قالت وقد سمعت ذكر حسب الله :

ـ ربنا يحفظه ويحفظ كل رجالنا

فواصل أبى كلامه قائلا :

ـ كانت خطته تشبه خطط الشياطين !!

فقاطعته أمى قائلة وهى تناوله كوب الشاى :

ـ لا تقل الشاطين بسم الله الرحمن الرحيم .. قل مثل خطط الملائكة !

فصاح فيها وهو يلقى (المدغة) بعيدا عن فمه استعدادا لارتشاف الشاى من جديد :

ـ اسكتى يا امرأة ٠٠ ما الذى ادراك أنت بمثل هذه الاشياء؟

ثم التفت ناحيتى وقال فى لهجة متعالية يغلب عليها المرح :

ـ امك امراة جاهلة !!

ولم يبد على أمى أنهـا تأثرت لكلمته .. تقبلتها كأمر مسلم به فقالت :

ـ طبعا .. وهل النساء مثل الرجال ؟!

فنظر ناحيتى وقال فى حزن :

ـ كنت أتمنى أن تكون فى الصف الأول مع المهـاجمين .. لكنهم وضعوك فى الصف الثالث .. فلماذا ؟

ولما لم يسمع منى اجابة تكفل هو بالرد على نفسه فقال :

ـ لانك لم تخض معركة واحدة فى حياتك .. وهذا عيب فى حقك .. الرجل الذى لم يجرب القتال ليس برجل .. ساءنى ان أرى (سالم) ابن عمك ـ هو شقيق سلمى ـ فى الصف الأول بينما انت فى الصف الثالث !

قلت ـ وأنا لا أدرى ماذا أقول ـ :

ـ ربنا يصلح الاحوال

فعقب على كلامى فى أسى :

ـ ليتنى اراك مـكان حسب الله تنظم الصـفوف وتضع الخطط .. لا سيما وانك رجل متعلم !

فرددت بقولى :

ـ ليس شىء على الله بكثير !

وهنا سـمعنا ضربات خفيفة على الباب انفتح على أثرها وظهرت نجـلة فلمحتنى ولم تلمح أبى .. فصاحت تخـاطبنى فى مرح :

ـ أهلا بأخى فارس الفرسان !

فرد عليها أبى فى سخرية مرحة :

ـ أهلا بك أنت يا أخت أبو زيد الهلالى !

وفوجئت نجلة بوجود أبيها فتلعثمت وهى تخاطبه

ـ كيف حالك يا ابى ؟

فرد عليها فى اقتضاب وان كان الحنان يخالط صوته رغم خشونته الظاهرة .

ـ بخير .. نحمده

فقالت مهنئة كما يحدث بعد كل معركة :

ـ حمدا لله على سلامتكم

فردت أمى نيابة عنا :

ـ الله يسلمك

وجلست نجلة التى تأتى لزيارتنا كل يوم تقريبا لقرب النجع الذى يقع فيه بيت زوجهـــا من نجعنا .. وقالت تخاطب اباها في أدب جم :

ـ هل حقا ان الشيخ محارب كان سينضم اليكم يا أبى ؟

فرد الوالد فى أنفة وكبرياء :

ـ جائز .. نشـــكره على كل حال .. لـــكننا والحمد لله لا نحتـــاج اليه .. كانت خطتنا كافية لسحق البراطيم ومن هم أقوى من البراطيم .

يا لذكاء نجـــلة .. هى ليست فى حاجة الى ســـؤالها .. فزوجها (مهدى) ينتمى الى قبيلة الكوامل التى يتزعمها الشيخ محارب .. كل ما ارادت ان تلفت النظر اليه فى سؤالها هو ان زوجها سيكون معنا اذا ما تدخلت قبيلته فى المعركة .. ارادت ان تقول : ليست قلوبنا فقط معكم .. ولكن (سيوفنا) أيضا !

***

ظل ابناء قبيلتنا يحملون النابيت لمدة ثلاثة أيام استعدادا للطوارىء .. يحملونها سواء اكانوا فى البيوت أو فى الحقول .. وفى اليوم الرابع دخل علينا غلام وخاطب أبى قائلا :

ـ الاشراف فى الخيمة



وخرج ابى .. وخرجت معه .. وفى الخيمة وجدنا جماعة من قبيلة الاشراف بينهم كبيرهم الشيخ منصور .. صافحهم ابى وامر باعداد القهوة .. وتوافد ابناء قبيلتنا عند سماعهم بوجود وفد الاشراف ·· وراحوا يصافحونهم ويرحبون بهم ويتحادثون معهم فى شتى الموضوعات .. ثم وقف الشيخ منصور بوجهه الوديع وراح يخطب .

« بسم الله الرحمن الرحيم ·· الحمد لله وحده ·· وصلاة الله على من لانبى بعده .. اما بعد .. استقر الرأى يامساعيد (اسم قبيلتنا) على ان يكون الصلح بينكم وبين البراطيم عندنا .. انتم جميعا اخوتنا .. ويقول الله تعالى : (انما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم) ·· « والصلح خير » · ·

ومضى الشيخ منصور فى خطبته وابناء قبيلتنا ينصتون في احترام شديد .. والحق ان قبيلة الاشراف تختلف عن اية قبيلة أخرى فى قريتنا .. فأكثر ابناء هذه القبلية يحفظون القرآن الكريم ·· بل ان الكثيرات من نسائهم يحفظنه ·· وقد عرفوا بدماثة الخلق والبعد عن المشاكل مما أكسبهم احترام كل أهل القرية ·· وأكثر مجالس العرب التى تعقد للصلح ·· تعقد فى خيمة الاشراف .. وقال الشيخ منصور فى خطبته :

« وسيكون الصلح يوم الخمس القادم ان شاء الله »

وقال له ابى بعد ان فرغ من خطابه :

ـ يوم الخميس ·· يوم السوق

فابتسم الشيخ منصور ولحيته البيضاء الصغيرة تضىء وجهه:

ـ ليكن الجمعة

قال أبى :

ـ السبت أفضل

رد الشيخ منصور :

ـ وهو كذلك

ثم سأله أبى :

ـ هل ذهبتم الى الشيخ محارب ؟

قال الشيخ منصور :

ـ سنذهب اليه الآن ٠٠ باذن الله

قال أبى :

ـ اذا وافق .. ابلغنى

قال الشيخ منصور وهو يستعد للانصراف :

ـ حاضر

ولما قمنا نشيع الاشراف حتى آخر حـــدود النجع .. سمعت حسب الله يقول للشاب جاد :

ـ الصلح بيننا وبين البراطيم .. اسهل من الصلح بين البراطيم وبين اخوالك (يقصد الكوامل)

فرد عليه جاد مفاخرا باخواله :

ـ طبعا .. الحية لا تنسى قطع ذنبها !

* *

تلاشت أحاديث المعركة وهدأت النفـــوس تمـــاما بعد أن جاءت الاخبـــار بموافقة الكوامل والبراطيم على الصلح عنـــد الاشراف ٠٠ والقى أبنـــاء قبيلتنـــا النبـــابيت وحملوا مكانها الفئوس وكأن الهدنة قد اعلنت وتحولت القضـــية الى مجلس الامن ٠٠ وانتهزت فرصة الهـــدوء والارتيـــاح النفسى الذى عم الجميع .. وهرعت الى احب مـــكان الى نفسى فى الجـــزيرة الخضراء ٠٠ الى فرع النيل الذى يقع جنـــوب الجزيرة ٠٠ أصغر الأفرع وأجملها على الاطلاق ٠

استأجرت قاربا صغيرا من تلك التى تســـتخدم لصـــيد الأسماك ٠٠ ورحت أذرع به الفرع جيئة وذهـــابا ٠٠ كـــانت الاشجـــار الغزيرة العملاقة تملأ الشاطىء الشمالى وكأنها تحرسها

.. وأغصانها تتـــدلى فتلامس المـاء فى دلال وكأنها تتحسس أو تستكشف درجة برودته استعدادا للاستحمام .. بينما الشاطىء الآخر ـ وكان لجزيرة صغيرة تابعة لجزيرتنا ـ قـد انتثرت عليـــه مزارع (الشرنجيج) ذات البذور الشبيهة (بالفاصوليا) .

كان شاطىء الجزيرة الكبيرة يرتفع تدريجيا حتى يبلغ علوا شاهقا .. بينـما شـــاطىء الجزيرة الصغيرة ينبسط فى تواضع تحت أقدام الشاطىء الشامخ وكأنه يعلن له الولاء والتبعية !

ومن بعيد ظهر حوش كبير للنخيل .. كان لى فيه ذكريات أيام الطفولة .. كنت أذهب اليه مع أصـــدقاء الطفـولة (أمين) و (جاد) فنجد جدى لامى جالسا امام باب الجنينة فى طرف الحـــــوش .. وبمجرد أن يرانا تنفرج أساريره وتتضـــح كل تجاعيد وجهه بالسعادة .. ويهتف فى فرح :

ـ جئتم يا (حلوين الملتقى) ؟

فكنت أقفز الى أحضانه فيضمنى الى صدره وأقول له :

ـ أريد أن أكون ابنك أنت !

يسألنى وهو يضحك :

ـ لماذا ؟

فاقول له فى لهجة من يريد أن يبكى :

ـ لان ابى يضربنى !

يضمنى الى صدره أكثر ويقول :

ـ لانك شقى

فأقول له فى عتاب :

ـ الا تريد ان اكون ابنك ؟

يرد وهو يضحك :

ـ لكنك ابنى

فاقول له فى عدم تصديق :

ـ لو كنت ابنك .. لما تركتنى أذهب عنده .

فيرد فى لهجة كانها جادة :

ـ غدا .. سأذهب اليه واشتريك منه

واشعر بالفرح ·· ويشير الى الجنينة ويقول :

ـ هاتوا العنب الواقع

فندخل الجنينة فرحين .. ونجد الكثير من شماريخ انعنب الطازجة ملقاة على الأرض ·· من فعل ثعلب ماكر يأبى عليه حسده الا أن يتلف أكثر مما يأكل ·· نكنت أصيح فى الرفاق بعيدا عن جدى :

ـ لا تأخذوا الواقع على الأرض .. هذا فيه فم (ابو الحصين) .. اقطعوا عنبا جديدا !

فنقطع شماريخ جديدة نضع عليها القليل من التراب ونذهب بها الى جدى ·· يغسلها فى القناة الصغيرة التى امامه ويرقبنا فى سعادة ونحن ناكل .. ونلقى بما يفيض الى النعاج المربوطة بالقرب منا ·· وما ان نفرغ حتى أصيح :

ـ نريد مانجو

فيقول فى أسف :

ـ المانجو بعناها

فأتطلع الى أشجار المانجو والثمار الصفراء تتدلى من أغصانها واقول فى دهشة :

ـ لكنها موجودة !

فيتحسس سبحته ويقول فى لهجة جادة :

ـ بعناها ·· الاكل منها حرام ·

ولا أفهم ما يعنيه ·· فنوهمه بأننا سننصرف حتى اذا ركب الحمارة عائدا الى البيت نعود الى الجنينة فنجد بابها مغلقا ولا سبيل الى تسلق السور .. فندخل من فتحة القناة المارة تحت السور ونحمل مانقدر على حمله من ثمار المانجو .. ونأتى الى فرع النيل الجنوبى ـ حيث أقف الآن ـ لنقتسم

الغنيمة حيث لا يرانا احد .. فكان امين يصيح :
ـ أنا لى كرشان ·
ونصدق ان له كرشين فيأخذ نصيب اثنين ..
أين هم الآن ؟ ·· لم يبق الا جـــاد ·· جدى مات ·· وأنا فى الاسكندرية .. وامين لا اعرف عنه شيئا .. جاء الفيضان فحطم نجعنا وهاجر مع أسرته الى حيث لا اعلم ·

***

لهوت بقاربى ماشاء لى اللهو ·· حتى اذا اقترب العصر خرجت من الماء فى اتجاه البيت ·· والتقى بى عامل البريد فناولنى رسالة خفق لها قلبى بمجرد رؤيتى لغلافها الازرق وخطها الانيق ·· كانت الرسالة من أحب الناس الى قلبى وأقربهم الى عقلى وأكثرهم فهما لى والتصاقا بى ·· من نادية ·
تناولت الرســـالة فى لهفة ·· ورحت أعيد قراءة السطرين المكتوبين على الغلاف وكأن هذين السطرين يحمــلان معنى آخر غير العنوان ·· ثم فضضتها على مهل ·· وبرفق عجيب وكأننى أشفق من تمزيق الغلاف الجميل ·· أو كأننى أخشى على اللحظات الجميلة القادمة من الضياع ·· وقرأت :
مصطفى
كيف حالك يا مصطفى ؟·· أوحشتنى جدا والله ·· جدا
لماذا لم تكتب لى يامصطفى ؟·· هل وجدت أحبابك فنسيت أصحابك كما يقولون ؟
عادل تقدم لخطبتى للمرة الثانية ·· رفضته طبعا·· وسأرفضه ـ هو أو غيره ـ للمرة العشرين ·
العائلة ـ كالعادة ـ منقســـمة الى قسمين ·· أبى من صف

عادل ٠٠ وأمي و (نبيل) من صفي ٠٠ لا يهمك شيء ٠٠ سأنتظرك عشرين سنة ٠٠ بل العمر كله ٠٠ الى أن تأتي عجوزا حاني الظهر ٠٠ فأسندك وأساعدك على الجلوس ٠٠ فتسعل كثيرا قبل أن يفتح الله عليك وتنطق لتقول انك أحضرت (الشبكة) !

على فكرة ٠٠ سينما (مترو) تعرض فيلما تاريخيا في منتهى الروعة ٠٠ اسم الفيلم (الهرم الاكبر) ٠٠ اعتقد ان عرضه سيمتد اسبوعا آخر ٠٠ ليتك تشاهده ٠

وأفيدك بأنني انتهيت أمس من قراءة رواية (البؤساء) للمرة الثانية ٠٠ كيلا تتهمني بأنني لم أفهمها ٠٠ أنا الآن مستعدة لمناقشتك فيها من جديد ٠٠ وأحب أقول لك انك انت الذي لم تفهمها ولست أنا يا أستاذ !

وقبل أن أنسى أحب أقول لك أيضا ٠٠ ان عادل جاء لزيارتنا قبل أن يعيد المحاولة الثانية بيوم واحد ٠٠ استغل في ذلك صلة القرابة التي تربطه بالوالد ٠٠ حاول أن يقلدك في أحاديثه كي يلفت نظري وينال اعجاب العائلة ٠٠ راح يتكلم في الادب والموسيقى والشعر ٠٠ لكن أي تقليد ؟ ٠٠ أين (ترعة المحمودية) من البحر الابيض ؟

أجمل تعليق على حديثه سمعته من ماما ٠٠ همست في أذني وقالت : « كلامه ماسخ ! »

ماما تسلم عليك ونبيل يبلغك أحر تحياته ٠٠ أما (بطاطا) فانه دائم السؤال عنك ٠٠ يسألني يوميا : «أين أبيه مصطفى؟» ٠٠ عد اليه ٠٠ أرجوك !

لا تنس أن تحضر معك (البلح) ٠٠ دمك ثقيل !

« نادية »

الفصل السادس

أعادتنى رسالة نادية إلى أجمل فترة مرت بى فى حياتى ..
كان ذلك فى بداية حياتى العملية .. عندما استأجرت لنفسى (شقة) بحى كليوباترا الحمامات .

فى اليوم الاول من استقرارى فى مسكنى الجديد .. تعرفت بالسيدة (صفية) التى تسكن فى الشقة المواجهة لشقتى .. كانت امرأة فى الخمسين من عمرها تميل الى البدانة قليلا .. طيبة القلب .. خفيفة الروح .. أهم مايميزها بساطة متناهية تفرض على المرء حبها واحترامها .. ويخيل لمن يحادثها لأول مرة انه يعرفها منذ زمن بعيد .

رحبت بى السيدة صفية ترحيبا حارا أشعرنى وكأننى جار عزيز قديم .. ودعتنى لتناول القهوة فى بيتها والتعرف الى زوجها السيد (عزت) .. وقدمته الى فرأيت فيه رجلا اقترب من الستين.. متوسط الطول .. نحيف الجسد .. امتلأ شعر رأسه بالمشيب.. تجاعيد وجهه تعبر عن طيبة تشبه طيبة زوجته الى حد بعيد .. الا انه كان ـ على العكس من زوجته ـ قليل الكلام ويبدو على تصرفاته طابع الروتين العتيد الذى أمضى حياته فى التعامل معه !

استقبلنى الرجل استقبالا حسنا استمد حرارته من حرارة استقبال زوجته .. التى راحت تحادثنى بفرح حقيقى وكأنها عثرت على كنز عظيم !

ودخل علينا بعد قليل غلام صغير فى السابعة من عمره تبدو

عليه مخايل (الشيطنة) ·· قدمته الى على انه ابنها : (بطاطا) !
عقد بطاطا ما بين حاجبيه ونظر الى شذرا وقال لأمه متسائلا
ـ من هذا ؟
فردت عليه وهى تربت على كتفه ملاطفة :
ـ الاستاذ مصطفى ·· جارنا الجديد
ففرد أصابعه ومد يده نحوى وصاح :
ـ « هات قرش »
فنهرته أمه ·· وزمجر أبوه ·· وانفلت من بين أيدينا عائدا الى استئناف لعبه فى الخارج ·· وانفجرنا ضاحكين ·
وكانت ومضته بيننا مجالا شيقا للحديث عن الاطفال وبراءتهم وزالت الكلفة بيننا تماما بأسرع مما كنت أظن ·
ومع رشفات الشاى وعبـارات الترحيب ·· أشارت السيدة صفية الى صورة معلقة على الحائط لشاب فى نحو السابعة عشرة وقالت :
ـ نبيل ·· ابنى
فالتفت ناحية الصورة وقلت :
ـ ما شاء الله ·· ربنا يحفظه
فاسترسلت قائلة :
ـ مسافر مصر ·· هو واخته ·· سيرجعان بعد عشرة أيام
قلت مجاملا
ـ بالسلامة ان شاء الله
استطردت قائلة
ـ خالتهم اشتاقت لهم فذهبوا اليها ·· هى تحبهم وهم يحبونها
قلت :
ـ ربنا يخليها لهم
ثم نهضت وتركتنا لتعود بعد قليل تحمل بين يديهـا اطارا صغيرا لفتاة فى نحو العشرين ·· وقالت :

ـ بنتى ٠٠ نادية

ونظرت الى الصورة فلم يلفت نظرى فيهـــا شيء ٠٠ صورة عاديه لفتاة متوسطة الجمال ٠٠ لا يميزها عن أكثر الفتيات شيء ٠٠ لم أكن راغبا فى اطالة النظر الى صورة فتاة يبدو من مظهرهـا انهـا تكثر الحديث عن المودات وآخر صيحات الازياء ٠٠ خصــلة الشعر المدلاة على الجبين تدل على السطحية والتفاهة ٠٠ لكن السيدة صفية راحت تتحدث عن ابنتها قائلة :

ـ هاتها فى حجرة ملآنة بالكتب وأغلق عليها ٠٠ من الصباح الى المساء على قلبها مثل اللبن !

تنبهت حواسى كلها لكلمتها ٠٠ عدت أنظر الى الصـــورة من جديد ٠٠ وقلت للسيدة صفية :

ـ ماذا تقصدين ؟

قالت وهى تقرب منى (منفضة السجاير) :

ـ تحب قراءة الكتب بطريقة غير معقولة ٠٠ وخصـــوصا كتب الشعر ٠

ثم استطردت ضاحكة :

ـ فى بعض المرات تقرأ على كلاما فى منتهى الجمال ٠٠ ومرات أخرى تقرأ كلاما لا أفهم منه حرفا

ثم أضافت فى براءة :

ـ بنات اليوم عجيبات !

فى هذه اللحظة ٠٠ شعرت بشيء يتحرك فى صدرى ٠٠ فسرته بينى وبين نفسى بأنه مجرد فضول ٠٠ لكننى أحسست برغبة قوية فى التعرف الى نادية ٠٠ فى نفس الوقت شعرت برهبة من المكان خيل الى ـ ولأول مرة منذ جلستنا ـ ان حديثى مع السيدة صفيـة وزوجها بدأ يلفه شيء من الكلفة ٠٠ لست أدرى السبب ٠٠ لكننى تنبهت على صوت السيدة صفية تقول لى وهى تمعن النظر فى الاطار

الصغير الذى بين يديها :

ــ مخطوبة ٠٠ لكنها عنيدة !

وانفجرت الكلمة فى رأسى ٠٠ تحفزت فى جلستى وشـعرت بأن الأمر يهمنى ٠٠ فقلت مستوضحا :

ــ مخطوبه لمن ؟

قالت :

ــ لعادل ٠٠ قريب أبيها ٠٠ شاب ابن حــلال وفى مركز محترم ٠٠ لكنها لا توافق ٠٠ لماذا ؟٠٠ لست أدرى !

وتغلبت على رواسب الصعيد التى تعيش فى أعماقى وقلت:

ــ لعلها لا تحبه ؟

فتدخل الاب فى الحديث وقال فى انفعال :

ــ لكنه يحبها ٠٠ وهذا يكفى !

قالت الام وكأنها تخاطب زوجها أكثر مما تخاطبنى :

ــ لكننا لا نستطيع ارغامها

فنظر الاب ناحيتى وقال وان كان فى الواقع يرد على زوجته:

ــ الحب يأتى بعد الزواج

قالت الام وهى تمصمص شفتيها :

ــ هذا كان ٠٠ زمان !

لافض فوك !٠٠ فعلا هذا كان زمان ٠٠ نادية عندها حق ٠٠ عادل ليس ندا لها ٠٠ هل أنا أعرف عادل ؟٠٠ لكن نادية محقة ٠٠ أجل ٠٠ محقة !!

وصمت الاثنان ٠٠ وانصرفت من عندهما وأنا أشعر بأن رباطا قويا أحس به ولا أراه ٠٠ يربطنى بهذه العائلة ٠

* *

تعودت فى مساء كل يوم أن أمكث ساعة أو بعض ساعة عند

السيدة صفية وزوجها السيد عزت خلال الاسبوع الاول من سكنى بجوارهما ٠٠ كنت أجد تشجيعا منهما وكنت فى الواقع فى حاجة شـــديدة الى من يؤنس وحدتى فى الحى الجـديد على ٠٠ كانت جلستهما ممتعة لم أتغيب عنها يوما الا لعذر قاهر ٠٠ فكنت طوال هذه الأمسيات أترقب اليوم الذى تقول لى فيه السيدة صفية: « نادية ستأتى غدا» ٠٠ ولكن بالرغم من كثرة أحاديثها عن أبنائها لم تذكر لى اليوم الذى ســتعود فيه نادية ٠٠ حتى مرت الايام العشرة التى ذكرتها فخيل الى بعدها ان نادية هذه ماهى الا شـــخصية خرافية شأنها فى ذلك شأن (العنقاء) ! ٠٠ وكل الجديد الذى عرفته ان نادية موظفة باحدى الشركات ٠٠ التحقت بالعمل بعد حصولها على الثانوية العامة ٠٠ وأن نبيل لا يزال طالبا ٠

وفى ذات صباح ٠٠ وبينما كنت أتهيأ للخروج الى عملى ٠٠ وفى اللحظة التى أغلقت فيها الباب الخارجى ٠٠ فتح الباب المواجه وظهرت منه فتاة جميلة ممشوقة القوام تحمل فى يدها حقيبةنسائية أنيقة ٠٠ ما ان رأيتهـــا حتى وقفت أحملق فيها مشدوها دون أن اتفوه بحرف واحد ٠٠ كانت الدهشة ـ كما قالت لى فيما بعد ـ مرتسمة بوضوح على تعبيرات وجهى وكان فمى نصف مفتوح ٠٠ ابتسمت فى وجهى وقالت متسائلة :

ـ حضرتك مصطفى ؟

ثم استدركت مسرعة :

ـ الاستاذ ٠٠ مصطفى ؟

فقلت على الفور وفى لهفة شديدة :

ـ نعم ٠٠ وحضرتك الآنسة نادية ؟

فردت ضاحكة :

ـ نعم

وتصافحنا بحرارة

وقد قالت لى ـ فيما بعد ـ انني يومهـــا لم أصافحها كمـــا بتصافح بقية خلق الله ٠٠ ولكن الصحيح هو انني (هجمت) عليها مصافحا !

كان هنـــاك تناقض واضـــح بين مظهر نادية الخارجي وبين طبيعتها الاصلية ٠٠ فمظهرها الخـــارجي يوحي بالارســـتقراطية والتعالى ٠٠ عنق بديع ٠٠ يحمل وجها جميـــلا ٠٠ يتوسطه أنف دقيق يجعله أشبه ما يكون بتماثيل الاغريق القديمة ٠٠ ولكن عندما تتحدث ٠٠ تبدو البساطة الشديدة فى حديثها الى الحد الذى يقرب من براءة الأطفال ٠٠ حتى تعبيرات وجهها المتعالية تتحـــول عنـــد حديثها الى تعبيرات طفولية محببة ٠٠ ولعل هذه البساطة هى أهم ما ورثته عن أمها ٠٠ قالت لى ونحن نسير فى طريقنا الى محطـــة الترام :

ـ ماما حدثتنى عنك كثيرا ٠٠ يبدو انها تحبك جدا

فقلت لها صادقا :

ـ الحقيقة أنا الذى أحبها جدا ٠٠ أنا أعتبرها أما ثانية لى

وعندما ركبنا الترام ـ اذ ان طريقنا واحد ـ قلت لها :

ـ رأيت صورتك ٠٠ وها أنا أراك الآن ٠٠ الفرق كبـــير بين الصورة والاصل ٠٠ الصورة لم تنصفك !

فتوردت وجنتاها وردت فى حياء :

ـ متشكره !

واسترسلنا فى حديث بسيط ٠٠ وساد بيننا تفاهم تام ٠٠ ثم نزلت هى فى محطة (الازاريته) ٠٠ وواصلت أنا طريقى الى محطة الرمل ٠

* *

تعددت لقاءاتنا ـ أنا ونادية ـ وتشعبت بيننا الاحاديث ٠٠

فكانت أجمل لحظات حياتى هى لحظات الصباح التى كنا نقضيها معا وكل منا فى طريقه الى عمله ·· بدأت الصلة بيننا بفهم كل منا الآخر ·· ثم تحول الفهم بعد بضعة أيام الى ارتياح كل منا لصاحبه·· ولم تمر عدة أسابيع حتى انقلب الارتياح الى حب جارف عنيف ·

فى البداية كنت أقضى الامسيات عندهم ·· فكنا نتحدث كثيرا ـ أنا ونادية ـ بحضور الأب والأم ·· وبحضور نبيل الذى تعرفت عليه وأصبحنا صديقين ·· كنا نتحدث فى كل شىء وببساطة تامة دون أن نجد فى ذلك حرجا ·· لكن مع مرور الايام ·· وعندما بدا كل منا يحس انه لا غنى له عن الآخر ·· اندثرت أحاديثنا بحضور الاب والام ·· فاذا انفردنا ببعضنا فى الطريق صباحا ·· انطلقت ألسنتنا من عقالها وبعد أن كانت أحاديثنا قاصرة على الفن والشعر والموسيقى ·· أصبحت خاصة بنا نحن الاثنين فقط ·· أحدثها عن نفسها ·· وتحدثنى عن نفسى ! ·· أنا أحكى لها عن الليلة الماضية وكيف انها كانت ساهمة لا تتكلم كثيرا وان خصلة شعرها الامامية كانت بعيدة عن موضعها الطبيعى بحوالى خمسة سنتيمترات !·· وهى تبرر لى سلوكها بأنها ـ أيضا ـ لم تذق للنوم طعما لانها سمعت أغنية تدور حول الزمن الغادر الذى قد يفرق بين الاحبة ! ·· نسينا الشعر والفن الذى شدنى اليها وشدها الى ·· ولم نعد نذكر منه الا ما يخص الحب والمحبين ·· لم أر شيئا أو أسمع شيئا خطيرا أو تافها الا حفظته عن ظهر قلب كى أنقله اليها ·· فأجدها تعيد الى اسماعى ما رأته أو سمعته هى أيضا ·· ولم يمر بنا يوم الا وكان به هجر وخصام ودلال وصلح ·· لكن الخصام لم يكن يزيد على الساعة أو بعض الساعة ·· ولم يكن للخصام أسباب قوية ·· مجرد لفتة أو ايماءة من أحدنا للآخر يفسرها على هواه قد ترضيه وقد تغضبه ·· لكن فى الغضب يكمن الرضا ·· وفى الهجر تكمن النية على الصلح !

تغيرت الدنيا فى نظرى تماما ·· وأصبح لكل شىء طعما جديدا ومذاقا جديدا ·· كنت كمن يحلق فى أجواء عليا تختلف عن أجواء البشر !

ولم نستطع أن نكتم حبنا عن الاسرة ـ أسرة نادية ـ فضحتنا نظراتنا وحركات ايدينا العفوية وتهدج صوتينا·· فذاع خبر الحب بين أفراد الاسرة وأصبح حديثالجميع ·· وكان لنادية شخصيتهـــا فى البيت ·· كان أبواها ينظران اليها بتقدير كبير ·· وكان والدها يتمنى لها أن ترتبط بعـــادل لقرابته منه وان كان مستوانا ـ أنا وعادل ـ متقاربا ·

أما الام ·· فقد كانت فرحة بهـذا الحب وان لم تعلن ذلك صراحة ·· كانت سعيدة لسعادة ابنتها ·· كمـا كانت ترتاح الى أكثر من ارتياحها لعادل ·· أما نبيل ·· فقد أصبح صديقا حميما لى للتقارب الشديد بيننا فى الامزجة ·· ومـع مرور الايام صرت كأننى أحد أفراد الاسرة ·· حتى ان (بطاطا) الصغير كان لا ينادينى الا بيا (أبيه مصطفى) ·· وشعرت لأول مرة فى حيـــاتى بحلاوة الاندماج فى أسرة ·· فقد عشت طوال حياتى شبه غريب أفتقد جو الاسرة وحنانها ·· عشت طوال فترة الدراسة عند عائلة هى ليست عائلتى على كل حال ·· كنت أعامل فيها معاملة الضيف ·· فاذا ذهبت الى القرية لقضاء أجازة عوملت بين عائلتى الحقيقية معاملة الضيف أيضا ·· لم يحدث مرة ان ثرت على طعـــام أو شراب أو ملبس لم يعجبنى ·· فالضيف لا يثور وليس من حقه أن يثور ·· من هنا كانت سعادتى بحب نادية مزدوجة ·· اندمجت فى أسرتها الى الدرجة التى أصبح لى رأى فى كل كبـــيرة وصغيرة من شئون الاسرة ·· ومع ان نظرات الابوين كانت توحى دائما أن نضع حدا لهذه العلاقة ـ باعلان الخطبة مثـــلا ·· كان ما يدور بينى وبين نادية من أحاديث يشمل كل شىء الا هذه النقطة ·· وكأن ارتباطنا

أصبح أمرا مسلما به لا يحتمل الخوض فى مثل هذه التفاصيل .

ومرت عدة شهور على حياتى الجديدة فى هناء وسعادة الى ان كان يوم .. عدت فيه من عملى لأجد نبيل ينتظرنى على باب العمارة ويقول لى فى قلق :

ـ والدك وصل !

فدق قلبى بعنف ...

لقد زارنى أبى عدة مرات أثناء اقامتى عند الاسرة التى تمت الينا بصلة القرابة .. ولم تكن زيارته فى العادة تزيد على اليوم أو اليومين .. فكنت افرح بزيـــاراته .. لكننى هـــذه المرة ارتعت لزيارته .. فقد جد فى الامر جديد .. ترى .. ماهو موقفه من نادية ؟.. وما موقفها منه ؟.. لقد سبقتنى نادية الى البيت فى ذلك اليوم .. فهل رأته ورآها ؟.. وما انطباع كل منهما عن الآخر؟.. لقد حدثت نادية كثيرا عنه .. لكن الفارق كبير بين الحديث عن أبى من بعيد .. وبين وجوده بلحمه ودمه ومفـــاهيمه عن الحيـــاة والناس .. اللهم لطفك ورحمتك !

وقلت لنبيل :

ـ متى وصل ؟

قال وقد خيل الى أنه شبه مذهول :

ـ أبى التقى به مصـــادفة وهو يدق باب شقتك .. فأدخله عندنا لما عرف انه والدك

وصـــعدت السلم قفزا .. ووجـــدت أبى يجلس فى حجرة الاستقبال وبجانبه السيد عزت وزوجته السيدة صفية .. يحيطان به احاطة الوزراء بالملك .. ويرحبان به فى ود ظـــاهر .. لكننى لاحظت عليه انه كان قلقا فى جلسته .. وصحبته ـ بعد أن تعانقنا طبعا ـ الى شقتى .. وبمجرد أن أغلقنا وراءنا الباب قال لى وهـــو يخلع ملابسه :

ـ هل انت صديق هذه الاسرة ·· أم هى مجرد جيرة ؟
قلت بعد تردد :
ـ نحن جيران وأصدقاء فى آن واحد ·· فهى أسرة طيبة جدا
فزم شفتيه وقال وهو يناولنى العباءة :
ـ أسرة طيبة فعلا ·· لكن
ثم انشغل بخلع الزعبوط الواسع واكمل قائلا :
ـ الام والبنت لا حياء عندهما ·· ويظهر ان الاب ليس له فى الامر شىء !
فقلت فى حرارة وأنا أتمنى أن يصدق كل كلمة أقولها :
ـ بالعكس يا والدى ·· انها أسرة طيبة جدا ·· كل ما هناك انهم كانوا يرحبون بك لانك ضيفهم ·
ثم استطردت فى حرارة وأنا أحاول أن أمس وترا حساسا اعرف مقدار تأثيره عليه :
ـ انهم (عرب) مثلنا ·· يحبون الضيف ويرحبون به ولا يدخرون وسعا فى اكرامه ·
فقال فى لهجة ساخرة :
ـ لا ·· الترحيب ليس هكذا ياشيخ مصطفى !!
ثم صمت قليلا وقال
ـ الرجال هم الذين يرحبون بالضيف ·· وليس النساء ··
ولما لم أرد عليه قال ينصحنى :
ـ لتكن علاقتك بهذه الاسرة علاقة جيرة فقط ·· هذا أفضل ·
استغرقت زيارة أبى يومين ·· كانت أخطر فتراتها تلك التى قضيناها فى منزل السيد عزت عندما استضافنا ـ أبى وأنا ـ على العشاء ·· التفتت الاسرة كلها حول مائدة العشاء كعادتها وراحت ترحب بالوالد وتحاول أن تشعره أنه فى بيته ·· بينما كان هو

طوال الوقت لا يستطيع أن يخفى استياءه من (الاستهتار) الذى ظهرت به (النساء) والذى وصل الى حد الجلوس معه على مائدة واحدة ومشاركته الطعام !!..

فى تلك الفترة حاولت أن أبدو طبيعيا فى تصرفاتى لكننى لم أستطع .. ذابت شخصيتى الحقيقية فى وجود أبى وحلت محلها الشخصية التى يعرفها هو عنى .. الشخصية التى تطيعه وتنفذ أوامره .. وتوافق على كل ما يصدر عنه من قول أو فعل .. وغادرنا البيت بعد أن شكرنا السيد عزت وعائلته .. لكن أبى كان قد ترك بصماته واضحة على كل أفراد الاسرة الطيبة .. ومنذ ذلك اليوم.. بدأ القلق يساور نادية على حبنا .. وبدأ التشاؤم يلون نظرتها الى المستقبل بلونه القاتم .. الا أن حبى لها كان يملؤنى بايمان عميق بأننى سأتمكن من اقناع أبى بالزواج منها .. كنت أعرف أن هذا مستحيل .. لكن ايمانى كان عجيبا بأننى سأقنعه .. وبعد عدة شهور .. فاجأتنى برقيته بلهجتها الحاسمة « احضر فورا » .. فشددت الرحال الى الجزيرة ..

الفصل السابع

عدت الى قراءة رسالة نادية من جديد ·· ولما رأيت نفسى قد اقتربت من النجع وضعتها فى جيبى وكأننى أخشى عليها من نظرات الناس ·· وأسرعت الخطى الى البيت لأخلو الى نفسى وأعيد القراءة مرات ومرات ·· ووصلت الى البيت ·

كان أبى يجلس على سرير الحبال (العنجريب) القريب من المدخل ·· كان ينفخ من الغيظ والشرر يتطاير من عينيه ·· ما ان القيت عليه السلام وتجاوزته بقليل حتى صاح فى خشونة :

ـ خذ يا ولد !

وللحظة تجمدت فى مكانى ·· شل عقلى عن التفكير ·· كانت طريقته فى نطق كلمة (يا ولد) هى نفس الطريقة التى يتبعها مع خصومه فى مناقشاته الحادة ·· مهما كانت مكانة أو أعمار هؤلاء الخصوم ·· اذن فأنا فى موقف الخصوم الساعة ·· انها اللحظة الحاسمة أتت تسعى على قدمين ·· يجب أن أتمالك شعورى وأضبط أعصابى ·· وأدافع عن وجودى وأثبت لأبى أن هناك شخصية جديدة يجب أن يعرفها ··

استدرت وقلت فى أدب برغم غيظ مكتوم :

ـ نعم

قال :

ـ هل سمعت بما حدث ؟

قلت فى دهشة :

ـ ماذا حدث ؟

قال فى صوت غاضب :
ـ الحاج عبد الرحمن (والد سلمى) بلغه انك رفضت الزواج من ابنته ٠
وصمت قليلا ٠٠ ثم استطرد وقد اختلط الغضب فى صوته مع الأسى :
ـ وارسل لنا يقول انه يشكرنا ولا داعى لتقليب هذه السيرة مرة أخرى ٠٠ وانه سيزوجها من أى أحد ٠
شعرت كأن معجزة من السماء قد وقعت ٠٠ ارتاحت نفسى ٠٠ وتراخت أعصابى المشدودة ٠٠ حمدت الله فى سرى ٠٠ قلت فى نفسى ستمر غضبة الوالد كما مر غيرها ٠٠ ولا داعى لصدام بينى وبينه ٠٠ ولتكن صورتى أمامه كما يراها وكما يحب أن يراها ٠٠ ما دام الأمر قد مر بسلام أو كاد ٠
قلت بطريقة مؤدبة وبصوت خفيض :
ـ أنا آسف يا أبى على ما حدث ٠٠ وكل شىء نصيب ٠٠ وأرجو أن تسعد سلمى فى حياتها الجديدة ٠٠ و ٠٠
فقاطعنى ونظراته النارية تكاد تلتهمنى :
ـ ماذا تقول ؟ ٠٠ نصيب ؟ ٠٠ أى نصيب يا ابن أمك ؟
قلت وقد ارتج على :
ـ ألم تقل انه سيزوجها ؟
قال فى سخرية :
ـ وهل ندعه يزوجها من غيرك ؟
قلت وأنا كالغريق الذى يبحث عن أى شىء يتعلق به :
ـ لكنه هو لا يريدنى ٠٠ اليس كذلك ؟
فرد فى حدة :
ـ هو من واجبه أن يقول ذلك ٠٠ ونحن من واجنا أن نسترضيه ٠٠ أفهمت يا تربية البنادر ؟
قلت وقد اختلطت المرئيات أمام عينى :

ـ لكننى لا أريد الزواج

فعلا صوته وتدفقت الكلمات من فمه كالسيل :

ـ لا تريد ؟! .. ومن أنت يا ولد ؟! .. أتريد أن توقع بينى وبين أخى ؟ بنت عمك تدعوك لستر عارها فتقول لا أريد ؟ ! .. من أنت يا ولد ؟ .. هه ؟ .. أبى رحمه الله تزوج من أربع نساء لمجرد اعالتهن وحمايتهن بعد موت أزواجهن .. لم تكن واحدة منهن فى موقف كموقف بنت عمك .. انت تخالفنى ؟ ! .. أنت ؟ .. أنت يا ولد ؟ !

فقاطعته قائلا :

ـ لكن يا أبى ..

فصاح فى حدة وغضبه يشتد وقد هم بالوقوف :

ـ أمك طالق ان لم تتزوج من بنت عمك .. طالق .. أفهمت يا ابن أمك ؟ !

ثم التفت ناحية أمى التى تركتنا ووقفت بعيدا .. فصاح بها :

ـ أخرجى يا امرأة من بيتى !

ثم تقدم نحو الباب الخارجى وصاح قائلا :

ـ لا أريد أن أرى أحدا منكم ببيتى عندما أعود !

وصفق الباب خلفه حتى كاد أن ينخلع

***

لبثت واقفا فى مكانى برهة كبيرة دون أن أدرى ان كان هذا الذى يحدث أمامى حلما مزعجا .. أم هى حقيقة واقعة ؟ .. لست أدرى كم مر من الوقت قبل أن أفيق لنفسى وأتبين حقيقة ما حدث .. شعرت بأنها حقيقة واقعة عندما بدأ بعض الجيران من أبناء القبيلة يتوافدون على البيت .. بعد سماعهم للخبر الذى

انتشر فى النجع انتشار النــار فى الهشيم ‥ كانوا كلهم يتمتمون بعبارات تنم عن الأسى والهلع والرثاء ٠

ـ نطلب من الله اللطف ٠

ـ ربنا يجعلها سلامات

ـ حسد ‥ والله حسد !

ـ لماذا كل هذا يا ناس ؟

ـ العين تفلق الحجر

ـ ربنا يحفظنا ‥

ووسط هذه الأصوات ‥ مرقت أمى خارجة الى بيت أهلها دون أن يعترض طريقها أحد ‥ وعندما أصبحت قبالتى وجهت الى نظرة عاتبة قرأت فيها كل ما أرادت أن تقوله لى ‥ فسرت فى جسدى قشعريرة خيل الى أن شعر رأسى قد وقف لها ‥ فجلست على السرير الذى تركه أبى منذ قليل ‥ ورحت أدخن فى شراهة ‥ وسيــل الوافدين لا ينقطع وكل عباراتهم لا تخرج عن عبارات سابقيهم ‥ وتمنيت أن تهب على الدنيا عاصفة هوجاء فلا تبقى منها ولا تذر ‥ وان تعقب العاصفة سلسلة من الصواعق والزلازل والبراكين ويطبق بعدها الظلام على العالمين !

ومع الوافدين دخل حسب الله بقامته الفارعة وتقاطيع وجهه تشعر الناظر اليه بالارتياح ‥ تطل منه ابتسامة عريضة حانية ‥ قال يخاطب الموجودين ضاحكا :

ـ كنت أعرف انه لابد أن يحدث فى قبيلتنا شىء !

ثم أردف موضحا :

ـ الناس حسدونا ‥ ألم تشاهدوا صفوفنا فى يوم البراطيم وكأنها صفوف عساكر الترك ؟

وتطلعت اليه الأعين فى اعجاب واجلال ‥ فخاطبهم قائلا وما زالت ابتسامته العريضة عالقة بشفتيه :

– اتركونى مع ابن عمى .. واذهبوا الى حالكم !

ونظر الواقفون بعضهم الى بعض فى تردد بين الخروج أو الوقوف وانتظار ما سيكون .. فخرج البعض وظل البعض الاخر واقفا .

واقترب منى حسب الله وهمس :

– قم معى .

قلت فى شبه اعياء :

– الى أين ؟

فحنى قامته ليكون صوته أكثر همسا وقال :

– قم .. وستعرف .

قلت وأنا أشد ما أكون زهدا فى الكلام :

– دعنى الآن .

قال فى حنان :

– أرجوك !

ثم أردف :

– سنذهب عندى فى البيت .

قلت وأنا أحاول أن يكون صوتى طبيعيا :

– لا أريد أن أتحرك الآن .. أشكرك .

قال فى عتاب :

– عيب .. نحن أولاد عم .. بيتى بيتك .

ثم وضع يده فى يدى وشدها برفق وقال :

– قم معى .. قم والله .

وتدخل أكثر الموجودين الذين سمعوا حوارنا .. واختلطت أصواتهم :

– قم مع ابن عمك .

– أتكسف حسب الله ؟

ـ زينة القبيلة يكلمك يا مصطفى !
ـ الذى يكلمك نفديه برقابنا ٠٠ أترد طلبه ؟
ثم تدخل عم عبد الله وحسم الموقف بقوله :
ـ على الطلاق الا قمت معه !
وتعالت الأصوات فى استنكار :
ـ الرجل طلق !
ـ هل تريد لطلاقه أن يقع ؟
ـ كلنا نرجوك وأنت صامت لا ترد ؟
وذهبت مع حسب الله ٠٠

كنت أعرف أننى لابد لى من مغادرة البيت ٠٠ سواء مع حسب الله أو مع غيره ٠٠ فانا مطرود الآن ٠٠ وكل هؤلاء الذين جاءوا يرجوننى أن أذهب مع حسب الله يعرفون انه لا بد لى من مغادرة البيت ٠٠ لكنهم اعتادوا ـ بالغريزة ـ ألا يشعروا المرء بهوانه ٠٠ لا سيما ان كان فى مثل موقفى ٠٠ بل بالعكس ٠٠ يتصرفون أمامه بكل ما يرضى كبرياءه ويشعره بأهميته ٠٠ قومى يتصرفون ـ أحيانا ـ كما لو كانوا يعيشون فى أرقى المجتمعات الانسانية !

***

قرع حسب الله باب بيته بعصا صغيرة يحملها قرعات خفيفة لها لحن يميزه كل من فى داخل البيت كشأن أكثر بيوت القرية ٠

وما لبث أن فتح الباب وأطل منه غلام صغير فى التاسعة من عمره ٠٠ أسمر اللون ٠٠ دقيق ملامح الوجه ٠٠ شديد الشبه بحسب الله ٠

ابتسم الغلام لمرآنا فنمت ابتسامته عن أسنان بيضاء جميلة التنسيق زادت سمرة وجهه من جمالها ٠

خاطبه حسب الله وهو يشير الى :
– عمك مصطفى ٠٠ سلم عليه ٠

فتقدم منى الغلام وصافحنى بحرارة مقلدا الكبار فى شد يدى وهزها ٠٠ ثم راح يتطلع الى فى اعجاب وسرور ٠٠ على اساس اننى أختلف – فى نظره – عن غيرى لاننى قادم من ذلك البلد الجميل البعيد الذى يتردد اسمه كثيرا على الأفواه ٠

وأخرجه أبوه من أحلامه بقوله :

– جهزوا لنا العشاء ٠

فسبقنا الغلام الى الداخل مهرولا وهو يكاد يطير من الفرح ٠٠ وتبعه حسب الله ٠٠ وبعد لحظات اذن لى فى الدخول ٠

كان بيت حسب الله يتكون من فناء واسع تتوسطه نخلة عالية ٠٠ وفى الجهة الغربية منه قامت ثلاث حجرات واسعة داخل كل حجرة ٠٠ حجرة أخرى ٠٠ هـذه الحجرات تسـتعمل للمبيت فى الشتاء ٠٠ وعلى طول الجدار الجنوبى ارتفعت سقيفة أمامها أربعـه أعمدة روعى فيها أن تكون أعلى من ارتفاع البيت كله بحوالى نصف المتر لتتصيد كل نسـمة مارة فى فصـل الصيف ٠٠ وفى آخر السقيفة ٠٠ فى الطرف الشرقى للجدار الجنوبى قامت حجرة المطبخ ٠٠ أو حجرة (الموقد) – كما يسمونها ٠٠ وعلى غير بعيد منهـا وقفت ثلاث صوامع للغـلال واحـدة كبيرة واثنتـان صغيرتان ٠٠ وبجوار آخر صومعة قبع برج للحمام ارتفاعه حوالى المترين ٠٠ وقف على بابه ذكر من الحمام علا هديله بطريقة بدت فيهـا نبرة الغضب فلم أدر أهو يغازل زوجته التى وقفت مستكينة بجواره أم أنه يرمى عليها يمين الطلاق !

وفى الجدار الشمالى ٠٠ الذى تقع فيه البوابة الكبيرة ٠٠ قامت حجرة مستطيلة لها بابان ٠٠ أحدهما يفضى الى الخارج فى محاذاة البوابة الكبيرة ٠٠ والآخر – وهو صغير – يفضى الى داخل البيت ٠٠

وهذه الحجرة هى (الديوان) التى توجد فى أكثر بيوت القرية وتقوم مقام حجرة الاستقبال للضيوف الخصوصيين ٠

وعلى الرغم من أن البيت كله من الطوب النيىء ٠٠ الا أنه كان بالغ النظافة شأن غالبية بيوت القرية ٠٠ وقومى يتمسكون بالطوب النيىء ويستخدمونه أيضا فى عمل أقبية لسقف البيوت لعزله حرارة أسوان الشديدة فى الصيف ٠٠ حتى انك لتدخل الحجرة فى الصيف القائظ فتحس بجوها البارد ٠٠ فاذا دخلتها فى الشتاء شعرت بالدفء وكأنها مكيفة الهواء !

***

جاء الغلام بـ (برش) مصنوعة من سعف النخيل ـ ناصعة البياض وفرشها لنا تحت السقيفة ٠٠ ثم أتى بمسندين صغيرين وضعهما على (البرش) وأسندهما على الجدار ٠

كانت الشمس قد بدأت فى المغيب وزقزقة العصافير تملأ الجو وهى تأوى الى أعشاشها فى الكرم القريب ٠٠ وقد تعمد حسب الله أن يدخلنى من الباب الكبير وليس الى (الديوان) كى يشعرنى باننى ابن عمه ولست ضيفا ٠٠ وأبناء القبيلة الواحدة يتعاملون على أساس أنهم أبناء عم على الرغم من أن بعضهم لا يلتقون نسبا الا فى الجد العاشر !

جلسنا تحت السقيفة نحتسى الشاى المخلوط بأعشاب (حلف البر) ذات النكهة الشبيهة بالنعناع ٠٠ وحسب الله يتحدث فى كل شىء الا فى الموضوع الذى يشغل بالى ٠٠ كل ما قاله عنه كلمة عابرة هى :

ـ لا تغضب ٠٠ كل شىء سيعود الى حاله ٠

ثم راح يتحدث فى شتى الموضوعات وقد راعى أن تكون أكثرها فكاهية ٠

نادى ابنه فى مرح :
ـ حامد ..
ولما جاء الغلام أجلسه بجوارنا وقال له باسما :
ـ عد جدودك .
فتربع الغلام وكأنه يقرأ سورة من القرآن وقال فى سرعة :
ـ حامد .. حسب الله .. مكى .. صالح .. ضوى ..
حسين .. محمد .. مرعى .. عواض .. شداد .. عامر .
فاستوقف ابنه وقال له :
ـ ماذا كان يفعل جدك عامر ؟
قال الغلام فى ثقة :
ـ كان يحارب الكفار !
فقال له :
ـ أكمل .
ومضى الغلام فى سرد أجداده .
ـ خليفة .. عبد الله .. الأمير نجم الدين .
وسكت الغلام .. وسأله حسب الله :
ـ الأمير نجم الدين .. ماذا كان يفعل ؟
قال الغلام فى سرعة :
ـ كان يحكم قنا وأسوان وبلاد النوبة !
ثم خاطب الغلام ضاحكا :
ـ تريد أن تكون مثل من يا حامد ؟
فرد الغلام فى ابتهاج وهو يشير الى :
ـ مثل عمى مصطفى !
فقهقه حسب الله وقال :
ـ لا .. أقصد فى جدودك ؟
قال الغلام وهو ينظر الى وكأنه يعتذر :
ـ مثل جدى عواض .

سأله حسب الله وكأنه يمتحنه :

ــ لماذا ؟

ــ لان الكفار لما قتلوا واحدا من قبيلتنا ‥ ركب الفرس وقتل رئيس الكفار واحضر رأسه فى المخلاة !

وسأله حسب الله :

ــ وأين دفن رأسه ؟

قال الغلام :

ــ فى خيمتنا !

ومضى حسب الله فى حكاياته الفكاهية ‥ ينتهى من واحدة ليدخل فى أخرى ترى ‥ لماذا تعمد هذا ؟

أبلغت به الرقة بحيث أبى ان يجرح شعورى بطرق أهم ما يشغل بالى الآن ؟ ‥ ومن أين لمثله الرقة وهو الذى اكتسب أهميته وشهرته فى القبيلة من تنظيمها للقتال وخوض المعارك ؟‥ هل يمكن ان يجمع الانسان بين النقيضين ؟ ‥ بين القسوة التى تتطلبها مواقف المعارك ‥ وبين الرقة التى تصل الى الحد الذى يجعله يتردد فى خدش شعور انسان ‥ مجرد خدش ؟

ها هو حسب الله مثال حى امامى يثبت جمع الانسان للنقيضين ·

اذن ‥ فحسب الله متعدد الجوانب ‥ له جانبه الصارم الذى يخيل لمن يلمسه ان صاحبه لم يسمع بشىء اسمه (الرحمة) ‥ وله جانبه الرقيق الذى يخيل لمن يراه أن صاحبه لا يجرؤ ــ لفرط رقته ــ على ذبح دجاجة ! ·

أمن أجل جمع حسب الله لهذين الجانبين يحبه أبناء القبيلة حبا يقرب من العبادة ؟ ‥ يرون فيه (القائد) المظفر الذى يدافع عن عزتهم وشرفهم بجانب ما يلقونه منه من تعاطف وحنان فى معاملاتهم واحاديثهم معه ؟

حقا .. لقد نال حسب الله هذه الحظوة لانه جمع بين الجانبين المتناقضين .

هو ليس كبير القبيلة ولا شيخها ولا أكثرها مالا .. لكن له فيها من النفوذ ما لو استخدمه لكان زعيمها وشيخها وكل شيء فيها!

أنا شخصيا أحب حسب الله منذ نعومة أظفارى .. كنت وأنا صغير أنظر اليه فأرى قامته المديدة المنصوبة كالرمح .. وصدره العريض .. وملامح وجهه السمراء المتناسقة .. فيبدو لى كأحد تماثيل الفراعنة الموجود فى (البربة) على الشاطىء الآخر من النيل .. وتجسمت هذه الصورة فى مخيلتى مع الأيام نتيجة للهالة التى أحاطها به أبناء قبيلتنا لما برع فى الخطط (الحربية) التى أحرز بها الكثير من الانتصارات (العسكرية) للقبيلة .. وازداد حبى له لادبه الجم أثناء مخاطبته لكبار السن من شيوخ القبيلة فكان يخاطبهم - فى أوقات السلم - خافض الصوت .. غاض البصر .

لقد تركت القرية .. وكبرت .. ودرست .. وتثقفت .. وخالطت الكثير من الأجناس .. انجليز .. وفرنسيين .. واغريق .. وكل شيء تغير فى نظرى الا حسب الله .. صورته هى هى .. واعجابى به وحبى له هو هو لم تغير منه الأيام شيئا !

ترى .. هل أشكو لحسب الله مابى ؟

هل يقتنع برأيى اذا ما بدأت معه النقاش ؟

***

أنا واثق بأن حسب الله اذا اقتنع برأيى .. وأحس بما يدور بداخلى بنفس الاحساس الذى يحس به الشاب المثقف الذى يسكن المدينة .. لو أحس حسب الله بهذا واقتنع به لتغير كل شيء فى حياتى بين يوم وليلة !

حسب الله ـ على الرغم من انه لا يتدخل فى شــئون القبيلة خلاف شئون (الحرب) ـ نافذ الرأى ·· قوى الحجة ·· مسموع الكلمة ·· اذا ما حدث اجتماع هام وحضرته الشخصيات الكبيرة من شــيوخ القبيلة ·· واحتد النقــاش ·· وعلا الضجيج ·· جلس حسب الله صامتا طول الوقت ·· فاذا ما نطق ليبدى رأيه ـ وغالبا ما يكون صوته خفيضا ـ سكت الصياح ·· وصـمت الجميع ·· واشرأبت اليه الاعناق ·

وما ان ينطق حتى تتعالى صيحات التأييد وما يلبث رايه ان يكتسح كل رأى وكأنه القول الفصل ! ·

حسب الله ـ وحده ـ يستطيع ان يخرجنى من حيرتى ·· وهو الوحيد الذى فى يده بث الطمأنينة الى قلب (نادية) ! ·

لكن حسب الله لا يسعى لأمر الا اذا اقتنع به ·· مهما كان هذا الأمر ·· فكيف السبيل الى اقناعه ؟

هل أستطيع أن أزيح القرون الطويلة من العادات والتقاليد وأن أصل الى عقله وأقنعه بموقفى ؟

ياليت !

ليتك يا حسب الله ·· يا من أحبك وأعجب بك لم تولد فى هذا المكان ! ··

ليتك نلت حظا ـ ولو قليلا ـ من التعليم وغادرت القرية الى مدينة كبيرة وعشت فيهـا ولو لسنوات قليلة خالطت فيها أسرتك الكبيرة من أبناء وطنك واحتككت ببعض الأجنـــاس الأخرى ·· لو حدث هذا لكان لى معك شأن آخر اليوم ·· لكن ·· وا أسفاه ·

***

الفصل الثامن

عندما حان موعد العشاء كان الغلام - ابن حسب الله - شعلة من نشاط .. احضر طستا صغيرا وابريقا لامعا به ماء وضعهما على غير بعيد منا تحت أحد الأعمدة .. وحمل على كتفه فوطة نظيفة .. واحضر فانوسا على مسمار مثبت فى العمــود .. وظل يتردد على (الموقد) بين كل لحظة وأخرى ثم وقف قبالتنا وصاح على طريقة حاجب المحكمة :

- العشاء جاهز

ونهض حسب الله مستأذنا وغاب فى (الموقد) قليلا .. ثم عاد يحمل على راحته صينية نحاسية كبيرة غطيت بـ (ولبل) كبير مصنوع من الخوص له ألوان زاهية .. وضع الصينية على (البرش) والتفت ناحية ابنه قائلا :

- الغسيل ياحامد

ووضع الغلام الطست بجوار (البرش) ثم عاد بالابريق ليقول لى مبتسما :

- اغسل يا عم مصطفى .

وصب الماء على يدى ثم ناولنى الفوطة .. وغسل حسب الله يديه وحذا الغلام حذوه .. وجلسنا ثلاثتنا نتناول طعام العشاء .

كان العشاء مكونا من زوج من الحمام المحشو بالأرز حتى بدت كل واحدة أكبر من حجمها مرتين .. وضعتا فى طبق صغير ..

وفى وسط الصينية وضع طبق كبير امتلأ بال (سخينه) ـ الطبق الأسوانى المفضل ـ المصنوع من البصل المفرى بالسمن والطماطم والكثير من التـوابل ٠٠ وداخل السخينة ظهرت طلائع أوراك بدا واضحا انها اجزاء دجاجة سمينة أو بطة ٠

ولما انتهينا من الطعام رفع حسب الله يديه الى السماء وقال :

ـ الفاتحة لأمواتنا وأموات المسلمين ٠

وما ان فرغنا من الفاتحة حتى صاح فى ابنه :

ـ افتح الديوان يا حامد

وانتقلنا الى الديوان لفضاء الســـهرة ثم المبيت وان كانت السهرة لا تمتد لأكثر من التاسعة مساء باى حال ٠

كان بالديوان أربعة أسرة من الحبال على كل سرير بساط فى مثل حجمه ومسندان ٠٠ وفى وسط الديوان قامت مائدة مصنوعة بطريقة بدائية ٠٠ وفى أحد الأركان مائدة أخرى أكبر من الاولى وضعت عليها عدة ألحفة لاتستعمل لغير الضيوف ٠٠ وبجوار الالحفة عدة (بروش) طويت واسندت الى الركن ٠

نفض الغــلام السرير الذى سأنام عليه وجاء بلحافين فرش أحدهما فوق البساط بعد ان ثنـــاه ٠٠ وطوى الآخر فوق طرف السرير لاستعمله كغطاء ٠٠ اذا أردت ٠٠ وفعل مثل ذلك بسرير أبيه ثم تركنـــا مهرولا ليعود يحمل صينية صـغيرة عليها أكواب الشاى ٠

وفجأة قال لى حسب الله :

ـ الجماعة (يقصــــد القبيلة) عندهم اجتماع الليلة ٠٠ هل تأتى معى ؟

قلت :

ـ ولم الاجتماع ؟

قال :

ـ سيعملوا (فردة) لاحضار (فرش) للخيمة

وتذكرت ان أبى سيكون هناك ٠٠ فقلت :

ـ لن أذهب ٠٠ سأنام

قال ضاحكا وقد لحظ سبب تمنعى :

ـ من الآن ؟ ٠٠ تعال كى تدفع نصيبك فى (الفرده)

قلت :

ـ أدفعه لك ٠٠ وأنت تدفعه نيابة عنى

قال وهو يهم بالوقوف ويناولنى عصا صغيرة لأحملها معى :

ـ هذا الكلام لاينفع ٠٠ نحن لم نعرف كم سيدفع الواحد

ثم فتح باب الديوان المفضى الى الخارج ومد يده الى الأمام

ـ تفضل

***

كان أبنـاء القبيلة يتـوافدون على الخيمة اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة ٠٠ وراحوا يتخذون أماكنهم فى المبنى الداخلى على الأبسـطة المفروشة على (البروش) ٠٠ وقد أشعلوا (كلوبين) وضعوا كـلا منهما على نافذة مطلة على السقيفة ٠٠ وبين كل لحظة وأخرى يقوم أحد الشبان ليعطى الكلوبات (نفسا) ٠ وفى صدر المجلس جلس شاب أمسك فى يده كراسة أسندها على ركبته وراح يدون فيها أسماء أبناء القبيلة ٠٠ تقـدم حسب الله منه وجلس بجواره وأفسح لى مكانا بجانبه ٠٠ ثم سأل الشاب فى همس :

ـ انتهيت ؟

قال الشاب دون أن يرفع رأسه :

ــ لم يبق الأ النواصر (فرع من قبيلتنا)
فابتسم حسب الله وقال فى مزاح :
ــ النواصر دائما متأخرون ٠٠ حتى فى الكتابة ؟
فسمعه عم عبد الله ــ وهو من النواصر ــ فقال :
ــ مالهم النواصر ؟
قال حسب الله يشرح له الأمر :
ــ لم يكتبوا بعد
فوقف عم عبد الله على ركبتيه وخاطب الشـــاب الذى يكتب قائلا :
ــ ولماذا تترك النواصر للآخر ؟ ٠٠ انتم من غير النواصر هل تساوون بصله ؟
فرد عليه الشاب دون أن يرفع رأسه من الكتابة :
ــ لا تشغلنا ٠٠ نحن عارفون !
فعاد عم عبد الله الى جلسته الأولى وهو يقول :
ــ ما دمتم قد اعترفتم ٠٠ فلا داعى لسحب النبوت !
ودخل أبى مع الوافدين وبصحبته عمى عبد الرحمن٠٠ وراح كل جماعة يتحادثون معا وقد شغلوا عن غيرهم ٠٠ ودارت على الجميع أكواب الشاى بواسطة الغلمان الصغار ٠٠ ورفع الشاب رأسه وقال لحسب الله فى همس :
ــ انتهيت
فسأله حسب الله :
ــ كم العدد ؟
قال الشاب :
ــ مائة وثلاثة وعشرون



قال حسب الله متسائلا :
ـ لماذا ؟ ٠٠ هل تركت أحد ؟
قال الشاب :
ـ لم أكتب الأولاد ٠٠ ولا ابناء البنات ٠٠ ولا المسافرين
فكر حسب الله قليلا وقال :
ـ لا داعى لكتابتهم ٠٠ الأمر بسيط
واعتدل حسب الله فى جلسته ٠٠ وصفق بيديه لينتبه اليه الجميع والتفت الى الناحية التى يجلس فيها ابى وقال :
ـ كتبنا الأسماء ياجماعه !
فـــرد عليه ابى دون ان يتقدم منـــا لما رآنى اجلس بجوار حسب الله :
ـ اكتب المصاريف يا حسب الله
فرفع حسب الله يديه وقال :
ـ الفاتحة بالتوفيق
وارتفعت الأكف تقرأ الفاتحة ٠٠ وراح حسب الله يملى على الشاب وقد انصت الجميع :
ـ اكتب ٠٠ عشرين جنيها سجادا ٠٠ خمسة جنيهات مساند ٠٠ جنيهين (بروش) ٠٠ جنيهين كبـــايات وصوانى للقهوة ٠٠ خمسة جنيهات واجب العبابدة
ومضى الشاب فى الكتابة ٠٠ وسألت حسب الله فى همس :
ـ مالهم العبابدة ؟
قال لى بصوت خفيض :
ـ عندهم ميت ٠٠ سنشترى لهم ذبيحة وغلة !
ثم التفت ناحية الشاب وقال له :

ـ احسب النقود ٠٠ كم يدفع الواحد ؟

واستغرق الشاب فى الجمع والطرح ولم يلبث ان رفع رأسه وقال :

ـ سبعة وعشرون قرشا

فخاطب حسب الله الجميع بقوله :

ـ هاتوا يا جماعة (الفردة) ٠٠ كل واحد سبعة وعشرون قرشا ٠

وبدءوا يدفعون النقود لحسب الله ٠٠ وحسب الله يملى على الشاب :

ـ فلان دفع ٠٠ أكتبه خالص

فلان دفع خمسة وعشرين ٠٠ اكتب عليه قرشين

وفجأة قال ابى لحسب الله بعد أن انتهى أكثرهم من الدفع :

ـ لكنكم نسيتم ثمن الكلوب الجديد ؟

ضرب حسب الله جبهته بيده وقال :

ـ اين ذهب عقلنا ؟

ثم نقل بصره بين ابى وبين الكراسة فى حيرة وقال متسائلا :

ـ هل نغير النظام كله ؟!

فرد عليه الشاب الذى يكتب فى اعياء :

ـ لا أستطيع ان اغير كل ماكتبته ٠٠ لنؤجل ذلك الى الغد !

فقلت لحسب الله :

ـ لم لا يتبرع أحدهم بثمن الكلوب ٠٠ وينتهى الأمر ؟

فنظر الى حسب الله فى دهشة وقال :

ـ يتبرع ؟ ٠٠ هل تريد ان تدخلنا فى مشـكله ؟ ٠٠ من يوافق ؟

هنا وقف عم عبد الله على ركبتيه وتساءل :
ـ كم ثمن الكلوب ؟
فرد عليه حسب الله
ـ أربعة جنيهات
قال عم عبد الله
ـ طبعا ستعملون فردة جديدة وندفع فلوسا جديدة ؟
قال حسب الله :
ـ طبعا !
قال عم عبد الله بأعلى صوته :
ـ لقد اقترضت الربع جنيه الذى دفعته بطلوع الروح ٠٠ ثم أدفع مرة أخرى ؟ ٠٠ على الطلاق ما أدفع !
وقهقهت الخيمة كلها
وقال له عمى عبد الرحمن وهو يهم بالوقوف :
ـ والله العظيم سبع ابن سبع !
ثم تقدم عمى من حسب الله وقال له بصوت هامس :
ـ كم المبلغ المتبقى ؟
قال حسب الله
ـ أربعة جنيهات
فناوله ورقة من فئة النصف جنيه وورقة من فئة الخمسة قروش وقال :
ـ اكتب فى الكشف احمد وياسين وعبد الباسط (أولاده الأطفال)
فتناول حسب الله النقود وقال :
ـ ربنا يحفظ ٠٠ وانا سأكتب حامد (ابنه)

وما هى الا لحظات حتى جمع المبلغ من عدة أشخاص كتبوا أطفالهم الصغار ‥ وصاح صوت من ركن الخيمة :

– من الذين سيذهبون الى (معتر) العبابدة ؟

فرد أبى قائلا :

– اختاروا لكم خمســـة أو ســـتة ‥ اما انا فمتعب ‥ حسب الله مكانى !

حسب الله مكانك ؟ ‥ كان يجب ان أكون أنا مكانك ! ‥ وتطلعت الأعين ناحيتى بطريقة لا ارادية ‥ وشعرت بالخجل ‥ لكن حسب الله نظر ناحيتى وقال :

– وانا وكلت مصطفى مكانى !

فصاح عم عبد الله دون ان يفطن الى مغزى حسب الله :

– والله عال ‥ مصطفى أيضا يبحث عن واحد يوكله ‥ لم لا تذهب أنت ومصطفى ؟

فقال حسب الله وهو ينظر ناحيتى ويبتسم ٠

– وهو كذلك !

وبعد بضع دقائق استقر الرأى على خمسة أشخاص يذهبون غدا لتغزية العبابدة ‥ كان من بينهم حسب الله وعم عبد الله وانا

وصاح صوت من طرف الخيمة والجميع يهمون بالانصراف :

– الفاتحة ٠

***

الفصل التاسع

كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية فتشيع الدفء فى جو الصباح البارد عندما اقتربنا من شاطىء النيل ٠٠ وخاضت بنا (الركائب) فى الماء قليلا ٠٠ واقتربت من المركب التى ستقلنا الى الشاطىء الآخر ٠٠ وكانت الحمارة التى أركبها هى حمارة حسب الله ٠٠ ووضع عليها السرج ووضعت فوقه (فروة) سوداء من جلد الخراف ٠٠ تدلى طرفاها على جانبى السرج حتى كادا يلامسا الأرض ٠٠ سارت بى فى الماء قليلا ولما اقتربت من المركب استدارت حتى لامس جنبها حافة المركب ٠٠ ووضعت قدمى على المركب ٠٠ وما أن خلصت قدمى الأخرى من السرج حتى قفزت الحمارة الى المركب فى مهارة فائقة ٠٠ ونزل الباقون بنفس الطريقة ٠٠ وكان حسب الله يحمل معه كيسا قد امتلأ بالقمح وضعه تحته فوق السرج ٠٠ بينما حمل أحد الرجلين الآخرين خروفا وضعه أمامه فوق طرف السرج وقد ربطت أرجله كل رجلين معا ٠٠ وكان واضحا أن عم عبد الله هو الذى يتزعم الوفد لأنه يكبر الجميع سنا ٠

ولما أصبحت المركب فى منتصف النيل ٠٠ أخرج عم عبد الله علبة (المدغة) وتناول منها ماوضعه فى فمه ٠٠ ثم أشار الى مبنى أثرى يقف على النيل فى الشاطىء المواجه لجزيرتنا وقال لى :

ــ هل رأيت تماثيل الكفار فى هذه (البربة) ؟

قلت :

ــ نعم ٠

قال

ـ جدنا الشيخ (عامر) هو الذى سخطهم ..

ولما كنت أعرف أن الشيخ عامر هو احد أولياء الله وله مقام معروف فى شاطىء آخر .. سألته :

ـ سخطهم ؟ .. كيف ؟ ..

قال لى وهو يبحث فى جيوبة عن قطعة (عطرون) ليضعها فى فمه مع (المدغة) :

ـ جاءوا يحاربونه .. وكان ساعتها يصلى .. فلما فرغ من صلاته ورآهم .. أشــار بيده دون أن يتحرك من مجلســه .. فانسخطوا فى أماكنهم وتحولوا الى حجارة !

قلت :

ـ لكن ؟

وترددت فى معارضـــته .. فمد عنقــه الى الأمام وتحفز فى جلسته وقال :

ـ لكن ماذا ؟

قلت :

ـ هذه البربة عمرها أربعة آلاف سنة .. وجدنا الشيخ عامر لم يمض على وفاته أكثر من بضـــع مئات من السنين .. فما الذى جمعهم به ؟

فضرب عم عبد الله كفيه والتفت ناحية الصحاب وقال :

ـ انا لا يغيظنى من الأولاد الذين يذهبون الى المدارس الا هذا الكلام الفارغ !

ثم بصق فى انفعال وقال :

ـ من أجل هذا منعت ابنى الكبير من المدرسة .. لكيلا يفسدوا عقله !

ثم استعد لافحامى قائلا :

ــلو أنك نظرت الى واحد من المسخوطين ٠٠ وتأملت عينيه وشفتيه وأنفه ٠٠ لخيل لك انه انسان ولكنه انسخط ؟

فرد أحد الرجال فى ايمان :

ـ طبعا

فقال عم عبد الله فى لهجة المنتصر :

ـ قل لمصطفى الذى يريد ان يعلمنا التواريخ !

ووقفت بنا المركب على بعد عدة امتار من الشاطىء ٠٠ فقفزت الحمارة الى الماء ٠٠ ثم استدارت من تلقاء نفسها ٠٠ والتصقت بالمركب حتى كاد السرج يلامس المركب ٠٠ فجلست على السرج فى سهولة ٠٠ واجتازت بى المسافة القليلة من الماء ٠٠ وسرنا يتقدمنا عم عبد الله فى طريق يضرب فى اعماق الصحراء حيث يرقد نجع العبابدة ٠٠ وقال لى عم عبد الله :

ـ جدة العبابدة ٠٠ اخت جدنا !

فسأله حسب الله :

ـ هل هى اخته شقيقته يا شيخ عبد الله ؟

فرد عليه فى سرعة :

ـ نعم ٠٠ هى وجدنا من أم واحدة ٠٠ انجبهم جدنا الكبير من زوجته النوبية !

ثم التفت عم عبد الله ناحيتى وقال فى لهجة المفاخر :

ـ جدتنا الكبيرة ٠٠ كانت بنت ملك النوبة !

ثم اشار الى الجنوب والهواء يتلاعب بكم زعبوطه الواسع :

ـ ملك النوبة خاف من جدنا الكبير الأمير نجم الدين ٠٠ لئلا يحتل بلاده ٠٠ فصادقه وزوجه من ابنته !

وتأمل حسب الله كم الزعبوط وقال يسأله :

ـ هذا الزعبوط ٠٠ جديد ؟

قال عم عبد الله وهو يضحك :

ـ من اين ؟ ‥ هذا استعرته من الشيخ علوان الكبانى ‥ زعبوطى قديم ؟

وبعد مسيرتنا بساعتين تقريبا ‥ لاح من بعيد نجع العبابدة الذى يرقد وحده فى بطن الصحراء ‥ فاوقف عم عبد الله حمارته ونزل منها وهو يقول :

ـ اصلحوا من شأنكم

ونزلنا جميعا ورحنا ننفض الغبار من زعابيطنا ‥ ونعيد لف العمائم من جديد ‥ ثم أمسك عم عبد الله بشاله الأبيض العريض ‥ فلف نصفه فوق العمامة وترك النصف الآخر يتدلى وراء عنقه ‥ واستأنفنا السير ‥

وقبل أن نصل الى خيمة العبابدة بمسافة كبيرة ‥ هرول نحونا عدة غلمان أمسك كل منهم برقبة احدى الحمير ‥ فنزلنا وتركناها لهم ‥ وأشـــار عم عبد الله الى الخروف والغلة وخاطب أحدهم :

ـ خذ الحاجات ‥

ودخلنا الخيمة التى رصت الكثير من الألحفة على سورها الخارجى دلالة على أنهم يبيتون فيهـــا فى أيام (المحصر) ‥ وما ان لمحنا العبابدة حتى وقفوا لنا ‥ وتقدمنا عم عبد الله وقال بطريقة تقليدية تشبه الخطابة :

ـ هكذا حال الدنيا ‥

فجاوبته أصوات الموجودين فى نغمة واحدة :

ـ سبحان الحى الدائم

وصافحنا عدة أشخاص من المقربين الى المتوفى ‥ وجلسنا

على السجاد المفروش على الأرض ٠٠ ورفع عم عبد الله يديه وقال :

ـ الفاتحة

ولما انتهينا من الفاتحة تقدم منا الكثيرون يصافحوننا وكانوا يخاطبون عم عبد الله وحسب الله باسميهما ٠٠ وسأل أحدهم :

ـ أين الشيخ عثمان ؟

فأشار عم عبد الله ناحيتى وقال :

ـ مريض ٠٠ أرسل ابنه ٠٠

وتعالت الأصوات ٠٠ بينما اتجهت الأنظار ناحيتى :

ـ سلامته

ـ ما شاء الله

ـ من خلف ما مات

ـ سلموا لنا عليه

ثم مضوا يسألون عن شيوخ قبيلتنا المعروفين لهم وقال أحد شيوخهم يخاطبنا :

ـ كيف لم تخبرونا بمشكلتكم مع البراطيم ؟

فقال عم عبد الله فى سرور :

ـ بارك الله فيكم ٠٠ لم تكن (شكلة) ٠٠ انتهت على خير ٠٠

فقال الشيخ :

ـ استعدينا هنا ٠٠ لكن قالوا لنا لم يحدث شىء ٠

ثم قال شيخ آخر فى حماسة :

ـ نبابيتنا صدأت من قلة القتال ٠

فرد عم عبد الله :

ـ تسلموا ٠٠ تسلموا ٠٠

وفجأة وقف أحد شيوخ العبابدة واتجه ناحية الباب الخارجى فصاح فيه عم عبد الله :

– الى أين ؟

فتوقف الشيخ وقال :

– سأعود حالا ··

لكن عم عبد الله صاح فيه

– لا وقت عندنا لما تريده ·· سنأكل من الموجود ··

قال الشيخ وهو يهم بالخروج :

– لابد من ذلك ··

فصاح عم عبد الله :

– ارجع ·· على الطلاق ترجع ··

فتدخل شيخ آخر وخاطب عم عبد الله قائلا :

– كبرت وعجزت ··· وما زلت فى طلاقاتك ؟

قال عم عبد الله وهو يضحك :

– أنا أموت ان لم أطلق ·

فقال الشيخ وهو يشير للشيخ الأول يأمره بالخروج :

– اذهب واذبح لهم ·· طلاق عبد الله أمره سهل ··

فصاح عم عبد الله :

– كيف ؟ ·· أنا طلاقى سهل ؟

قال الشيخ وكان الآخر قد خرج فعلا :

– أنا أعرفك ·· ثم أننا لن نذبح لك أنت ·· نحن نعمل قيمة خيمتنا ·

ثم قال مستدركا ·· وهو يشير ناحيتنا :

– وقيمة مشايخ العرب ·

ومضى كل جماعة يتحادثون معـــا فى ود ·· وقد تخللت أحاديثهم الكثير من الضحكات ·· وقال عم عبد الله للشيخ الذى يجلس بجواره :

ـ كم ستمكثون على المرحوم فى (المحصر) ؟
فرد الشيخ :
ـ ثلاثة شهور ..
فقال عم عبد الله فى انزعاج :
ـ فقط ؟ .. لقد استمر (محصر) أبيه ستة أشهر .. فهل المرحوم أقل من أبيه ؟ .

فأشار الشيخ الى عدة رجال من قومه يصغرونه سنا وقال :
ـ قلت هذا الكلام .. لكن جيل اليوم لا يهتم .
فهز عم عبد الله رأسه وقال فى استياء :
ـ لا .. لا .. هذا كلام فارغ .. هذا رجل معروف فى كل البلاد .. شيخ العرب ابن شيخ العرب .. لولا أبوه لما استطاعت العربان أن تصمد أمام الترك وظلمهم .. حتى الانجليز أولاد الكلب كانوا يخافون منه !! .. هل انقلب الزمن يا خبراء الجبال ؟

ثم التفت عم عبد الله ناحيتنا وقال لنا يشرح مكانة والد المتوفى :

ـ كان مرة يركب حصانه ويسير مع قائد الانجليز الكبير .. فنادى عليه عبادى حافى القدمين .. من عبابدة الجبل .. فنزل من حصانه وعانقه ووقف يكلمه أكثر من ساعة .. وغضب قائد الانجليز .. وقال له كيف تتركنى واقفا من أجل هذا العبادى الحقير ؟ .. فقال له : اسمع يا انجليزى .. انا سأقول لك بيتين من الشعر وافسرهم لك بالانجليزى :

« كلام الحبايب بلح بل
يا جيك كالنبل ماشى
شفت لك صارى بلا حبال
رخى قلعه والقماشى ؟ »

ثم فسر له الكلام بالانجليزى لانه يعرف رطانة الانجليز وقال له:
« كلام الحبايب مثل البلح المبتل بالماء ·· ويأتيك مسرعا كالنبل··
وهل رايت صارى مركب يرخى قلعه ويسير بدون حبال ؟ » ·· انا
شيخ العرب لاننى زعيم هؤلاء ·· انا الصارى وهم الحبال »

ثم التفت عم عبد الله ناحية شيوخ العبابدة وقال فى أسى :

ـ ابن شيخ العرب (محصره) ثلاثة اشهر فقط ؟ القيامة قامت والله !

وحان موعد الغـــداء ·· ودخل شـــبان العبابدة يحملون الصوانى وقد فتت فى اطباقها خبز (النشابى) الأبيض الرقيق مثل ورقة السيجارة ·· وقد غمر بالمرق ووضعت عليه طبقة خفيفة من الأرز ·· وجلس الجميع حول الصوانى فى صفين طويلين ·· ثم دخل رجلان من العبابدة يحمل أحدهما (قدحا) ـ طبق كبير من الخشب ـ الصقه بصدره ·· ووضـــع الآخر كلتا يديه فى الطبق وانهمك فى تقطيع أجزاء الذبيحة ·· ثم تقدم من الناحية التى نجلس فيها ··ووضع فى أطباقنا كمية كبيرة من اللحم ·· ثم دار على بقية الجالسين من قومه فوضع أمامهم كميات اقل ·

وبعد ان شربنا الشاى بقليل صاح عم عبد الله :

ـ الفاتحة

وما ان انتهت الفاتحة حتى هب واقفا فوقفنا نحن أيضـــا وسرنا الى الخارج يتبعنا أكثر الموجودين وهم يرددون :

ـ نأتيكم فى المسرات

***

الفصل العاشر

كان الوقت عصرا عندما تركنى حسب الله ليذهب الى حقله ‥ فوجدت نفسى وحيدا فى الديوان تهجس بى هواجس الفكر ‥ انا أخاف الوحدة اذا كان هناك ما يشغل بالى ‥ ما هى الخطوة التى يجب على أن أخطوها ؟ ‥ يجب أن أتصرف ‥ لا ينبغى أن أقف هكذا مكتوف اليدين ‥ هل أسافر ؟ ‥ أجل ‥ يجب أن أسافر ‥ ما الذى يمنعنى ؟ حقيبتى الوحيدة أمرها بسيط ‥ نصف محتوياتها من الكتب ‥ هى فى مكانها لم تمس ‥ يجب أن أغادر القرية فورا ‥ فى اسكندرية سأعيش كما أحب أن أعيش ‥ لا سلطان لأحد على هناك ‥ فلن أعيش الا مرة واحدة ‥ واحدة فقط ‥ قرأت – لا أدرى أين – ان فى حياة الانسان ثلاثة أحداث ‥ اثنان منهما لايد له فيهما ‥ والثالث متروك له فيه الاختيار ‥ الاحداث الثلاثة هى : المولد ‥ والزواج ‥ والموت ‥ الزواج فقط من حقه ‥ وقومى – سامحهم الله – يريدون حرمانى من حقى الوحيد فى الاختيار ‥ مستحيل ‥ لن أعطيهم الفرصة لحرمانى ‥ يجب أن أسافر اليوم ‥ بل الآن ‥ وأمى ؟؟ أأتركها هنا ؟ ‥ أتركها لمن ؟‥ أغاضبة انت منى يا أمى لأننى تسببت لك فى المتاعب ؟ ‥ لا تغضبى ‥ سأصحبك معى ‥ سأجعلك تعيشين كملكة ‥ سأفرجك على الدنيا ‥ ستسعدين كثيرا ‥ لا سيما اذا رأيت وجه نادية الصبوح ‥ وابتسامتها العذبة ‥ ستعاملك كأمها تماما ‥ ستفهمك بسرعة ‥ نادية مثقفة ‥ وعلى جانب كبير من الذكاء ‥

ولها دراية بطباع الناس ·· ســـــتلم بطباعك من أول لقاء ·· وستسعدين بصحبتها ·· لكن هل تسعدين أنت بصحبتها حقا ؟ ·· هى ستعاملك كأمها ·· وانت ·· هل تعاملينها كابنتك ؟ ·· انت طيبة يا أمى ·· ومحبة للخير ·· ومتدينة ·· لكننى أخاف من طيبتك ·· طيبتك هذه هى التى ستفسد سعادتك مع نادية ·· هل تذكرين عندما ذهبت بصحبتك الىزيارة مقام ولى الله الشيخ عامر؟·· يومها رأيت سائحة اجنبية تلتقط بعض الصور ·· وما ان لمحت فستانها القصير وساقيها العاريتين حتى هتفت فى ذعر : انظروا المرأة ؟ ·· ثم ادخلت رأسك فى ملاءتك المصنوعة من صوف النعاج وقلت فى خجل : « وافضيحتى !! »

فما هو قولك اذا رأيت نادية ·· زوجة ابنك ؟!
اماه ··· ما هو العمل ؟

***

دفع حسب الله باب الديوان وقال لى فى مرح :

– كيف ما امسيت يا ابن العم ؟

طريقته فى الحديث أزاحت الكثير من الهم الجاثم على صدرى ·· رددت عليه وأنا أهم بالجلوس من رقدتى :

– مسانا ومساك بالخير يا شيخ حسب الله

قال لى فى ود وهو يجلس بجوارى على السرير :

– نمت ؟

قلت :

– لا ·· لم استطع

قال فى أسى :

ـ لماذا ؟ ٠٠ تركتك وحدك كى تنام

قلت وانا انظر الى الشمس التى بدأت فى المغيب :

ـ سيأتى الليل ٠٠ ونشبع نوما

قال :

ـ لانوم الليلة ٠٠ استعد للسهر !

قلت فى تعجب :

ـ اين ؟

قال فى سرور :

ـ عند محمود السلواوى ٠٠ الليلة دخلة ابنه

قلت :

ـ اعفنى ٠٠ ليس لى رغبة فى الذهاب

قال :

ـ لا ٠٠ سيفوتك نصف عمرك ان لم تذهب

قلت :

ـ لماذا ؟

قال :

ـ لانه احضر (القوال) صديق الحكيم من (الجعافره) !

ثم فرك حسب الله يديه وقال فى نشوة :

ـ ستسمع هذا الرجل بصوته الجميل يغنى (ادوار) (المربوع) ويفنن الكلام من دماغه ويغنيه بصوته الجميل وكأنه ـ لحلاوته ـ يحكى لك حكاية

فقلت فى لهجة صادقة :

ـ ياسلام ؟

قال حسب الله فى حماس :

ـ والله ٠٠ فى احدى المرات اجتمعوا عليه خمسة (قوالين) من الفطاحل ليعجزوه ولـكنه غلبهم جميعا ولم يستطيعوا حتى ان يجاروه ٠

ثم استطرد لما رأى اهتمامى :

ـ كان الواحد فيهم يقول (دوره) فيرد عليه فى الحال بدور مطابق لكلامه (فننه) فى نفس اللحظة ٠٠ الى ان اعجزهم جميعا قبل مطلع الفجر !

قلت لحسب الله :

ـ هل تحفظ شيئا مما قيل ليلتها ؟

قال فى أسى :

ـ عيبى اننى انسى بسرعة ٠٠ ولكننى اذكر ان احـدهم قال له :

« ياحكيم ٠٠ انا سأقيدك بقيد من حديد ٠٠ وان كنت قوال بحق فك نفسك »

فقال له : « هات ماعندك » ٠٠ فغنى قائلا :

« قيدا حديد سكيته فيك سكانه
اتلموا الانجليز احتـاروا فى فكانه
اللى عنـده دواك مات واتقفل دكانه
وبيته خـرب هجـروه سـكانه »

فوضع الحكيم يده على خده ورد عليه فى الحال قائلا :

« قيدا حديد احتـرنا فى سـكانه
الأربعـه الاقطـاب كانوا فى فكانه
البيت العمار ما بيهجروه سـكانه
اللى عنده دواى مات٠٠ ولده مكانه »

ثم قال حسب الله فى اعجاب :

– ارأيت ؟ ·· الذين فكوا قيده هم الاقطـــاب الأربعـــة السـيد البدوى ·· وسيدى الرفاعى ·· وسيدى الدسوقى ·· وســـيدى الكيلانى ·· رطبعا هؤلاء اقوى من الانجليز الذين لم يستطيعوا فكه !

وفجأة سمعنا طرقات على الباب دخل على أثرها عم عبد الله ويصحبته (مهدى) زوج اختى (نجله) ·· فرحب بهما حسب الله وقال لى مهدى بعد ان جلس :

– اين انت ؟ ·· بحثت عنك فى كل مكان فلم اجدك ·· الى ان قالوا لى انك كنت فى (محصر) العبابده ··

ثم استطرد مهدى بعد أن استرد أنفاسه :

– هل يصح ان تقضى ليلك فى الخارج وانا موجود ؟

فسأله حسب الله :

– اين تريده ان يبيت ليله ؟

قال مهدى :

-- عندى طبعا

قال حسب الله فى مزاح :

– انت نسيبه فقط ·· وانا ابن عمه ·· فأينا احق به ؟

قال مهدى بنفس المزاح :

– انت من قبيلته فقط ·· لاتجتمع به الا فى الجد العاشر ·· ولكننى نسيبه وبينى وبينه أربع وعشرون ضلعا !! (يقصد نجله)

قال حسب الله ضاحكا :

– وليكن ·· أنت صلتك به صلة لحم ·· وأنا صلتى به صلة عظم ·· وليس اللحم كالعظم ··

فالتفت مهدى ناحية عم عبد الله وقال :

ـ احكم بيننا يا شيخ عبد الله ‥ من منا أحق بمصطفى ؟ ‥
أنا أرضى حكمك ‥ فأمال عم عبد الله عمامته الى الأمام حتى كادت أن تغطى عينيه ‥ وعدل من وضع زعبوطه ‥ وقال بعد أن ضخم صوته وكسا وجهه بعبوس مصطنع :

ـ حسب الله أحق ‥

وانفجر حسب الله ضاحكا ‥ بينمـــا قال مهدى فى غيظ حقيقى :

ـ حكمت ؟ ‥ وما أدراك أنت بالأحكام يا ضلالى المجالس ؟‥

فقال عم عبد الله دون أن يغير من وضعه :

ـ تعلمناها منكم ‥

فنظر مهدى ناحيتى وقال وهو يحاول أن يدارى انفعاله :

ـ ارأيت ‥ أكبرت الرجل وجعلته حكما بيننا ‥ فنسى شيبته وتحيز لابن عمه ؟

فقال له عم عبد الله :

ـ الحق واضح كالشمس ‥ هما أبناء عم ‥ وأنت من قبيلة أخرى ‥ فكيف يبيت عندك ؟

فقلب مهدى بصره بين عم عبد الله وبين حسب الله ثم ألقى آخر ما فى جعبته وقال :

ـ اذن ‥ يتناول الطعام عندى ‥ وينام عندكم ‥

وأراد حسب الله أن يتكلم ‥ لكن عم عبد الله منعه من الكلام بقوله :

ـ اتركه لى ‥ سأرد عليه ‥

ثم التفت ناحية مهـــدى وقال له وهو يغمض عينـــا ويفتح أخرى :

ـ ما هذه النباهة ؟
وسكت قليلا ثم قال :
ـ فسر لنا ـ بنباهتك ـ حكاية الطعام هذه ؟!

ولما كان مهدى قد لاذ بالصمت ٠٠ استطرد عم عبد الله يقول فى تهكم :

ـ رجل ينام فى نجع ٠٠ ويتناول طعامه فى نجع آخر ٠٠ لكم الجنة والله يا كوامل ! (قبيلة مهدى)
كان حسب الله غارقا فى الضحك ٠٠ ومهدى غارقا فى الحيرة وأنا أنقل بصرى بين الجميع كأن الأمر لا يعنينى ٠٠ وقال مهــدى فيما يشبه الرجاء :

ـ هل يمكن ان يتناول العشاء عندى الليلة ؟ ٠٠ اخته تريد ان تراه !

فقال له عم عبد الله :
ـ هذه لك حق فيها ٠٠ اعزمه ٠٠ واعزمنى معه !

***

ونحن فى طريقنا الى بيت مهدى افضيت الى حسب الله برغبتى فى زيارة أمى ٠٠ فغير حسب الله ســـيره الى طريق ضيق يشق الحقول ٠

وكان النجع الذى يقع فيه منزل جدى لامى ـ وقد توفاه الله ـ يقع فى منتصف الطريق بين نجعنـــا ونجع الكوامل حيث بيت مهــدى ٠٠ كان نجعا صغيرا تحف به المزارع وتحيط به أشــجار النخيل ٠٠ فيبدو وكأنه يقع وسط غابة خضراء ٠٠ وفى مقدمة بيوت النجع ظهر بيت جدى الذى كان اعلاها واجملها على الرغم من قدمه

.. وبجواره ظهر برج عال للحمام (الجبلى) كان فى يوم ما غاصا بالحمام .. فلما مات جدى أهمل فبدا وكأنه قلعة أثرية ..

وما ان طرقنا الباب ودخلنا ـ أنا وحسب الله ـ حتى استقبلتنا جدتى استقبالا عاصفا ٠

كانت جدتى سيدة عجوز جدا ولكنها متينة البنيان .. انا لا أعرف عمرها بالضبط .. وهى نفسها لا تعرف عمرها .. وقد عرفت بقوة شخصيتها واعتزازها بحسبها ونسبها بدرجة تفوق الوصف .. ما ان لمحتنى داخلا حتى بادرتنى صائحة :

ـ ماذا يظن ابوك نفسه ؟ .. كبير ؟ .. ابوك انت يطرد بنتى انا ؟ .. هل هو مثلها ؟ .. هل ابوه مثل ابيها أو امه مثل امها ؟

ثم سعلت فى قوة واستطردت :

ـ بنتى أحسن منه .. وأعلى مقاما ٠ ٠وارفع حسبا ونسبا .. كانت ساقية أبيها تدار بأربعين بقرة .. بينما ساقية ابيه ظلت الدهر كله لا تملك غير بقرة واحدة .. فاذا تعبت هذه البقرة التى كتب عليها الشقاء .. جاء ابوه الينا متذللا يستعير منا الابقار .. لعن الله هذا الزمن الذى أصبح فيه عثمان ابن عبد المعطى يطرد فيه فاطمة بنت الحاج ابراهيم الحجازى .. الدنيا خربت والله .. خربت !

وسكتت جدتى فقلت لها مستلطفا :

ـ ياجده ..

ولكنها لم تدعنى أكمل حديثى .. صاحت بى مقاطعة :

ـ أسكت يا ولد .. ماذا تريد أن تقول .. وصلنا للزمن الذى أصبح فيه ابوك يتحكم فى سيدته وسيدة ابيه .. وصلنا .. الله الله يازمن !

ثـم صمتت لثوان قليلة ريثما تسـترد أنفاسـها وأكملت صياحها :

ـ جدكم طرد من البلد (تقصد رأس قبيلتنا) ولكن جدنا نحن هو الذى اعاده الى البلد وحماه ٠٠ هل تريدون ان تساووا انفسكم بنا ؟!

فقال لها حسب الله ضاحكا :

ـ لكن ٠٠ الا تستحى منى ياجده ؟

فردت عليه فى سرعة :

ـ استحى ؟ ٠٠ لماذا ؟ ٠٠ هل أنا أكذب ؟ ٠٠ ألم يطرد جدكم فعلا ويعيده جدنا ؟ ٠٠ انت نفسك تعرف ذلك وكل قبيلتك تعرفه! (جدتى وامى من قبيلة واحدة)

فقهقه حسب الله وقال :

ـ نحن نعرف ذلك ٠٠ وجدكم جدنا أيضا ٠٠ فأبى أمه من قبيلتكم (ثم اشار الى) وأم مصطفى منكم ٠٠ وامهات أكثرنا من قبيلتكم ٠٠ لذلك فنحن نفخر بجدكم لانه جدنا نحن ايضا ٠

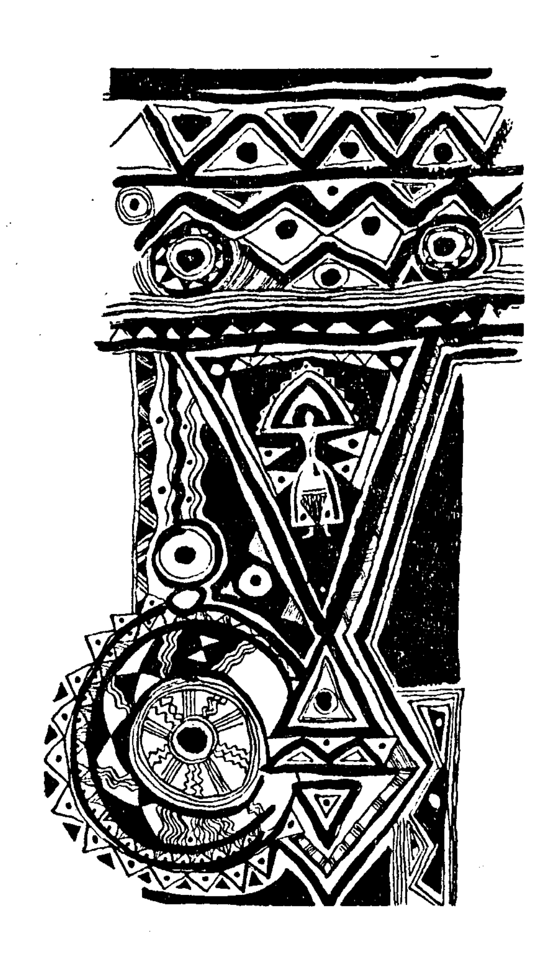
فردت عليه فى حماس :

ـ نعم ٠٠ انكم تتزوجون منا لكى تطلبوا الحماية والشرف فالضعيف دائما يتقرب الى القوى ويتمنى لو يناسبه !

فرد عليها حسب الله ولا زال يضحك :

ـ صدقت ياجده ٠٠ لكن لاتنسى ايضا انه لو لم يكن رجالنا شجعانا لما رضيتم ان تزوجوهم من بناتكم ٠٠ لاسيما وانكم بهذه العظمة !

وصـمتت جدتى بعـد ان افرغت شحنتها ٠٠ واسـتطرد حسب الله يقول لها فيما يشبه التسليم :



ـ مهما قلت ٠٠ فنحن نوافقك ٠٠ الحق معك والله ياشيخة العرب !

ومرت فترة صمت قصيرة كانت جدتى قد هدأت فيها تماما ٠٠ فالتفتت ناحيتى وقالت بصوت خفيض :

ـ لا تؤاخذنى يا ولدى ٠٠ ابوك لم يبق لى عقلا ٠٠ ما الذى أدخل ابنتى فى النزاع الذى بينك وبينه ؟

كان كل هذا الحوار يدور ٠٠ وامى جالسة قرب (الموقد) بحيث ارها أنا ولا يراها حسب الله ٠٠ كانت تغالب الضحك على الثورة التى استقبلتنا بها جدتى ٠٠ لكن وجهها كان يبدو شاحبا وكأنها تعانى مرضا ٠٠

تركت حسب الله معجدتى تحت السقيفة٠٠ وقد انقلبحديثهما الى ما يشبه المزاح ٠٠ وتقدمت حيث تجلس امى ٠٠ سلمت عليها وجلست بجوارها وقد احسست بقلبى يعتصر لشحوب وجهها ولعلامات الانكسار التى بدت تكسو تعبيراتها ٠

قالت لى فى اسى :

ـ افعلوا ما شئتم يا مصطفى ٠٠ انا سلمت امرى الى الله ٠٠ لكننى لن أعود مرة أخرى ٠

فقلت لها فى حرارة :

ـ لابد من عودتك يا امى ٠٠ لابد !

وهنا سمعتنى جدتى فصاحت فى حيوية تحسد عليها :

ـ تعود ؟ ٠٠ تعود عند من ؟ ٠٠ عند الناس الذين لا أصل لهم ولا فصل ؟! أقسم برأس جدى الغالى ٠٠ ما اترك بنتى تخرج من بيت أبيها ولو اجتمعت كل القبائل !

وانزعجت لعنادها العجيب ٠٠ فالتفت ناحية أمى وكأننى أستطلع رأيها ٠٠ فوجدتها تغالب الابتسام ٠٠ فداخلنى شىء من

الاطمئنان ·· وجاءنى صوت حسب الله يؤنب جدتى فى مرح :

ـ انت تتحدثين معى هنا ·· ام تنصتين الى ما يدور بين الولد وامه ؟

فردت عليه فى سرعة :

ـ آخر الطب النار ! ·· الزواج بيع وشراء يرد الى أربعين سنة ·· بنتى لم تكمل أربعين سنة ·· رددنا البيع !

فصاح فيها حسب الله فى مرح

ـ أتركينى أكمل حديثى معك

ثم خاطبنا قائلا :

ـ اخفضوا اصواتكم من فضلكم ·· اننى اروى الى جدتى نكتة ·· لا تفسدوا انسجامنا !

فقالت له :

ـ لا أريد سماع نكاتك !

فضرب ركبته بيده وصاح فيها وكأنه ينهرها :

ـ كلام فارغ ·· أنت تودين أن أكمل النكتة ··

ثم قال كمن تذكر شيئا :

ـ أين الشاى الجميل يا جدة ؟ ·· هل نحن فى جنازة ؟ ·· أم انك تظنين شتيمتك لأجدادنا هكذا بدون مقابل ؟

فالتفتت جدتى ناحيتنا وقالت فى حاتمية :

ـ اركبى البراد يا فاطمة !

ورحنا نشرب الشاى الذى يشرب فى أسوان أكثر مما يشرب المـاء ·· ومع رشفات الشـاى بدأ الجـو يصفو ·· وراحت جدتى تستمع الى نكات حسب الله فى شغف ، وسمعته يقول لها :

ـ الم تسمعى يا جدة ما فعله عبد الهادى ؟ (وهو رجل فى الخمسين به لوثة)

فقالت فى سعادة :

ـ ماذا فعل هذا المجنون ؟

قال حسب الله :

ـ تأخر عن صلاة الجمعة ·· ولما دخل الجامع وجد المصلين فى الركعة الأخيرة ·· فوقف فى ركن الجامع وحده ورفع يديه وقال بأعلى صوته : « الله أكبر ·· الله أكبر ·· نويت أصلى وحدى ·· ولا الاحتياج لأولاد الكلب ! »

فقهقهت جدتى بصوت عال وهى تتابع حسب الله الذى وقف ورفع يديه الى أعلى وكأنه يصلى ·

ولما رآها قد استغرقت فى الضحك تشجع وقال لها :

ـ غدا ان شاء الله ·· سأسعى كى تعود خالتى (يقصد أمى) الى بيتها فوثبت جدتى من مجلسها وصاحت وقد استعادت رباطة جأشها :

ـ كله الا هذا ·· الناس مقامات يا ولد ياحسب الله ·· الكبير كبير ·· والصغير صغير ·· بنتى عادت الى بيت ابيها ولن تبرحه الا الى القبر ·· هل تعتقد انك تضحك على بحكاياتك ؟ ·· كلامك كله فارغ !

***

الفصل الحادى عشر

حينما دخلنا – أنا وحسب الله – ديوان مهدى ٠٠ وجدنا عم عبد الله ينتظرنا معه ٠٠ تركتهم فى الديوان ودخلت البيت لألتقى بنجلة ٠٠ واستقبلتنى نجلة بالبكاء ٠٠ كانت تتحدث وتبكى فى آن واحد :

– لماذا كل هذا يا مصطفى ؟ ٠٠ الناس يتحدثون عنا فى كل مكان ٠٠ يقولون ان أمى طردت من البيت كما تطرد (الغوازى) ٠٠ أنا لا أستطيع أن أرفع رأسى بين نساء (الكوامل) ٠٠ التى مثل أمى تطرد يامصطفى ؟٠٠ أهذا أملنا فيك ؟ أتغضب والدك ووالدتك ؟٠٠ ألا تعرف ما يجره غضب الوالدين ؟ ٠٠ ثم لماذا تغضبهم ؟ ٠٠ هل هما فى حاجة الى أن يدلاك على ستر عار بنت عمك ؟٠٠ كان يجب أن تتقدم انت من نفسك للزواج منها دون أن يطلب منك ذلك أحد ٠

واستمرت نجلة فى حديثها الذى اختلط بالدموع ٠٠ وبعد قليل انضم الينا مهدى ٠٠ وقال لى معاتبا :

– انت مخطىء يا مصطفى ٠٠ لم أكن أنتظر منك هذا الموقف ٠٠ هذا الموقف سيصبح عارا على أولادك من بعدك !

شعرت كأننى فى دوامة ٠٠ تصبب منى العرق ٠٠ وعادت نجلة تقول :

ـ اننى فى أشد حالات التعب الآن ·· أبوك رفض مغادرة المنزل بأى حال ·· طلب منه عمك (والد سلمى) أن يقيم عنده فرفض ·· وطلب منه نسيبك (تعنى مهدى) أن يقيم معنا فرفض ·· أنا مضطرة الآن أن أقوم على خدمته ·· تعبت كثيرا فى هذه المهمة ·· أرجوك ضع حدا لعذابى ·· وافق على بنت عمك ·· لو وافقت سينتهى كل شىء ·· والدنا قلبه أبيض ·· انت تعرفه !

وسكتت نجلة فقال مهدى :

ـ جدتك تصر على عدم الصلح مهما كانت الأسباب ·· لذلك اتفقت مع حسب الله ان نذهب الى الشيخ (محارب) ونفاتحه فى الأمر ·· أبوك وجدتك لا يقدر عليهما أحد غير الشيخ محارب !

لم أجد كلاما أقوله ·· ماذا أقول ؟ ·· هل أقول اننى غير مقتنع بحكاية عار سلمى مادامت فرص الزواج أمامها كثيرة ؟ ·· هذا القول عار أيضا فى نظرهم ·

هل أقول اننى مرتبط بانسانة أكن لها كل حب واحترام ·· وهى تنتظرنى الآن وتعد الساعات على عودتى ؟ ··

لكن لم لا أقول هذا لمهدى ونجلة ؟ ·· انهما أقرب الناس الى بعد أبى وأمى ·· وهما على أى حال ـ يمثلان جيلا آخر له مفاهيمه التى ربما كانت جديدة ·· من يدرى ·· ربما اقتنعا بما أقوله وقد يحدث على الموقف بعض تغيير ·· لم لا ؟

لمعت الفكرة فى ذهنى واستولت على تفكيرى ·· فقلت لهما :

ـ أنا سأتزوج من اسكندرية ·

ضربت نجلة صدرها بيدها وقالت متسائلة :

ـ من أين ؟

أسندت يدى على صومعة الغلال وقلت :

ـ من اسكندرية !

قالت فى دهشة شديدة :

ـ اسكندرية ؟ ·· من البحراويات اللاتى يختلطن بالرجال دون حياء ؟ ·· انت ترضى على نفسك أن تتزوج من واحدة تحادث الرجال فى غيابك ؟!

قلت وكأننى أكلم نفسى :

ـ أنا أحبها ·· ولا غنى لى عنها ·· وهى مختلفة عن غيرها !

فحدقت نجلة فى وجهى غير مصدقة ·· وفتحت فمها لتتكلم لكنها لم تقل شيئا ·· ثم التفتت الى مهدى وقالت له فى انزعاج :

ـ لم لا تتكلم ؟

ففتح مهدى فمه وأغلقه عدة مرات قبل أن يقول :

ـ هذا كلام لا يصدر عن عاقل ·· انت كبير فى نظرنا ·· فلا تسقط نفسك بمثل هذا الكلام !

ثم جذبنى من يدى وهو يقول فى لهجة أقرب ما تكون الى الرثاء :

ـ هيا نجلس مع الضيوف الى أن يجهز العشاء ·· لكن لاتقل هذا الكلام لأحد غريب ·· عيب !!

واتجهنا الى الديوان فقالت نجلة تخاطب مهدى :

ـ عرفت السر ·· أخى (معمول) له (عمل) من البحراوية ·· لابد من اخراج هذا (العمل) حتى تعود المياه الى مجاريها !!

***

عندما بدأنا فى تناول طعام العشاء ·· قال حسب الله لعم عبد الله :

ـ هل تأتى معنا الى عرس محمود السلواوى ؟

قال عم عبد الله وهو مشغول بالأكل :

ـ لا ··

قال حسب الله :

– لماذا ؟ ‥ (القوال) صديق الحكيم هناك ٠

فتوقف عم عبد الله عن الطعام وقال فى ثورة :

– ابن الكلب هنا ؟!

فقلت فى استغراب لما رأيت غضبه وتوقفه عن الطعام :

– هل حدث منه شىء ؟

قال وقد علا صوته الرفيع :

– ابن الكلب هذا شتمنا فى سنة الفيضان !

قلت فى فضول :

– كيف ؟

قال :

– انكسر سد نجعنا وسد نجع (القوز) ‥ ودخل علينا النيل فى البيـوت فهربنا برجالنا ونسائنا الى الترعة ‥ وأقمنا عليها شهرين فى (ذروب) البوص ‥ وفى تلك السنة كان عند البراطيم عرس ‥ أحضروا فيه صديق الحكيم هذا ‥ فقال يشتمنا ويشتم نجع (القوز) ويمدح البراطيم لأن سدهم لم ينكسر :

البحر جانا يحوز حوز
كسر المساعيد والقوز
على الترعة اتبهدل الموز
البراطيم أخدت الفوز

ثم كسر عم عبد الله لقمة (قرص) غمسها فى طبق (السخينة) فى انفعال وقال :

– من قال لهذا المنافق ان نساءنا (تبهدلت) على الترعة ؟ ‥ وأى فوز هذا الذى كان للبراطيم ؟ ‥ البراطيم كانت تساعدهم الحكومة ‥

فقال له حسب الله الذى كان معجبا بصديق الحكيم :
ــ خلاصة الكلام ٠٠ هل ستذهب معنا ؟
فرد عم عبد الله فى ثورة :
أنا أذهب لسماع ابن الكلب ؟ ٠٠ على الطلاق ما أذهب ٠٠

***

كان عرس محمود السلواوى يسبح فى بحر من النور ٠٠ فقد علقت عشرات (الكلوبات) على أعواد من الشجر ثبتت فى الأرض لهذا الغرض ٠٠ وازدحمت الخيمة الكبيرة بمن فيها ٠٠ وانتشرت أسرة الحبال فى الساحة الكبيرة فملأتها ٠٠ ولم يجد الكثيرون ما يجلسون عليه فجلسوا على الأرض ٠٠ ووقف صف من الشبان يغنون (المربوع) ٠٠ يضربون أكفهم فى ايقاع ويدقون بأرجلهم على الأرض مع ضربات الأكف ٠٠ يتقدمون خطوتين الى الأمام ٠٠ ويرجعون خطوة الى الخلف ٠٠ وأمامهم وقفت فتاة فى الثانية عشرة وضعت على رأسها (شال) انسدل على ظهرها ووجهها فلم يظهر منها غير القدمين والكفين ٠٠ كانت ترقص رقصة أشبه ما تكون بقفزات العصفور ٠٠ وتتأخر خطوة الى الخلف عند كل ايقاع لتحافظ على المسافة التى تفصلها عن الشبان ٠

كان الشبان يرددون بنغمة أقرب ما تكون الى اللهجة السودانية :

يا حبيبى متين أراك
يستريح قلبى من هواك

وأمامهم .. بعيدا عن الفتاة .. وقف صديق الحكيم .. يغنى (الدور) فيبدأ الشبان فى ترديد أغنيتهم مع ضرب الأكف .. ثم يبدأ الحكيم فى القاء (دور) جديد .

كان الحكيم يغنى وجميع الجالسين ينصتون وكأن على رءوسهم الطير .. وكلما انتهى من (دور) تعالت صيحاتهم من كل ركن في اعجاب :

ــ الله الله يا شاعر العرب !

ــ لا شريك لك فى القول يا قوال !

ــ الحكيم ولا احد غير الحكيم !

والحكيم بقامته المتوسطة وجسده النحيل يهز رأسه الصغير الغارق فى عمامة كبيرة ويبتسم فى تواضع .. وعيناه تدلان على انه يعيش فى دنيا غير دنيانا !

وقال لى حسب الله ونحن نشق الزحام :

ــ لولا الحكيم .. لما رايت عشر هؤلاء الناس !

ثم استطرد وهو يبحث بعينيه عن مكان نجلس فيه :

ــ انظر .. ناس من بلدنا وناس من غير بلدنا !

وتلفت حولى .. فرأيت احد الدروب فى الجانب الشرقى قد ابعدت عنه (الكلوبات) عمدا فغرق فى الظلام .. حدقت فى الظلام فرأيت عشرات من النساء جلسن ينصتن الى الحكيم فى شغف .. وقد لمعت فى الظلام على وجوه بعضهن القطع الذهبية من (الدنانير) و (الودع) .. فتنبه حسب الله حيث أنظر فقال:

ــ العرائس لا يسمح لهن بالخروج من المنازل الا فى يوم الحكيم !

ثم ابتسم وقال لى فى لهجة ذات مغزى :

ــ لا تحدق فيهن طويلا .. عينك توجعك !

ورآنا محمود السلاوى .. والد العريس .. فتقدم منا وصافح حسب الله في حرارة ثم صافحنى .. وقال وهو يتقدمنا :

ــ اتبعانى .

وتقدم الى سرير يجلس عليه بعض الشبان الصغار .. وما ان لمحونا حتى هبوا واقفين وأجلسونا .

وهنا التفت الحكيم ناحيتنا فابتسم لحسب الله .. فحياه حسب الله باشارة من يده .. فوضع الحكيم يده على خده وقال يحيى حسب الله بصوت جميل :

لما حسب الله جانا فى المواعيد
كأنى كنت صايم قابلنى عيد
ده نبوته يرمى الزول من بعيد
حبابك حبابك زعيم المساعيد

فوضع حسب الله يده على عمامته يشكره .. وتعالت الصيحات فى اعجاب وذهول :

– أهكذا (فنن) الدور فى الحال ؟
– الحكيم معه شيطان يمليه الأدوار !
– الله الله يا حكيم !

ثم التفت حسب الله ناحيتى وكأنه يقول لى :
« ألم أقل لك ؟ » .

سبحان الله .. هذا الرجل – كما قيل لى – لا يقرأ ولا يكتب .. ومع ذلك يرد على من يحادثه – أحيانا – (بدور) منظوم يضمنه كل ما يريد أن يقوله .. ويقول (أدواره) فى جميع الأغراض بنفس القوة .. فى الغزل .. فى الفخر .. فى المدح .. فى الهجاء .. فى الوصف .. هل الموهبة – وحدها – لها كل هذه القوة ؟ .. هل هذا الرجل يعرف عن نفسه كل شىء ؟ .. ترى .. لو سمعته نادية .. ماذا كانت تقول ؟ .. هى لن تفهم بعض كلماته لأنها بلهجتنا المحلية .. كما قد يخيل اليها أن فى أوزانه الكثير من التكسير .. لكن لو شرحت لها بعض الكلمات

الغامضة .. وأفهمتها أنه يدغم بعض الحروف عند نطقها فتبدو موزونة .. أنا واثق انها ستعجب به وتدون الكثير من (أدواره)
لماذا أذكر نادية الآن ؟ .. لماذا ؟

انتبهت على رجل يتقدم من حسب الله ويهمس له بكلمات..
فلما انصرف الرجل . قال لى حسب الله :

ـ اتدرى ماذا سيحدث الآن ؟

ـ لا .. طبعا .

قال :

ـ الشيخ غندور (شيخ البلد) وهو قوال قديم .. يريد أن يعاكس الحكيم (بدور) ليمتحن مقدرته على الرد السريع .. انظــــر !

ورأيت شيخ البـلد يتقـــدم من الحـكيم .. وامتدت أعناق الجالسين الى الأمام فى اهتمام .. وزحف بعض الذين يجلسون على الأرض حتى كاد الصف الأول منهم ان يلتصق بأقـــدام الحكيم .. وقال شيخ البلد في صوت قوى :

ـ يا حكيم .. استعد لمقابلة اسطولى !

ثم قال فى القاء سريع دون أن يغنى :

اذا كانت بلد يا صاحبى بنعزلها
اسطولى ان دخل المينا بيزلزلها
اذا كانت جيوشك كثيرة بنجرحها ونبزلها
غصبا عنك راياتك اتنزلها

فالتفت الحكيم ناحيته وقال فى نغمة جميلة :

ـ يا ليل .. والله ليل .. يا ليلنا

ثم وضع يده على خده وقال لشيخ البلد :

البحر لغمناه بالعرض والطول
تنظر بالعيون يا شيخنا وين تطول ؟
اللى يصدقك زيك يكون مسطول
فيه شيخ بلد فى الدنيا عنده أسطول ؟

وتعالت الضحكات على شيخ البلد الذى انسـحب وهو يضحك أيضا .

فى هذه اللحظة وصل عم عبد الله .. افسح له أحد الشـبان مكانا بجوارنا فقال له حسب الله فى سخرية :

ــ ما الذى جاء بك ؟

فرد عم عبد الله وهو يمد عنقه منصتا (للدور) الذى كان الحكيم يلقيه .

ــ انا جئت من أجل صديقى محمود السلواوى .. وليس من أجل سماع ابن الكلب هذا !!

***

الفصل الثانى عشر

كنت فى حقـــل حسـب الله أتفرج على (زروب) الملوخية الشتوية التى برعت جزيرتنا فى استنباتها فى غير أوانها وبيعها فى أسواق البنادر القريبة .. حينما جاءنا غلام يركب حمارة يسير بها على عجل .. وقف قبالتنا وقال ونبرات صـــــوته توحى بخطورة ما يقول :

– الشيخ محارب فى الخيمة !

– الشيخ محارب ؟

نطقها حسب الله فى دهشة مقرونة بالسرور ..

والحق أن الاسم انفجر فى أذنى انفجار القنبلة .. فصاحب هذا الاسم ليس بالشخصية العادية فى جزيرتنا .. فقد ارتبط اسمه بكل أحداثها الكبيرة التى كانت بمثابة نقطة تحـــول فى علاقات قبائلهـا ببعضـــها بعضـــا .. نظـر حسـب الله ناحيتى وقال لى وما زالت الدهشة المقرونة بالسرور ترتسم على كل تعبيرات وجهه :

– سمعت ؟ .. الشيخ محارب !

قالها بطريقة من يقول : « أرأيت أهميتنا ؟ .. وصلت الى الحـــد الذى يزورنا فيه الشـــيخ محارب نفسه ! » .. ثم التفت الى الغلام وقال له وهو يلوح بيده .

– سنأتى حالا !

وما ان تحرك الغلام حتى ناداه حسب الله مرة أخرى .

— أخبرتم كل الجماعة ؟

استدار الفلاح بحمارته مرة أخرى وقال :

سأذهب الى حقل الشيخ الكبانى لينبه على جيرانه

قال له حسب الله فى اهتمام :

— لا .. نبه عليهم بنفسك .. هل أنت وحدك ؟
— معى أربعة آخرون .
— اذهب .. شد حيلك !

ثم التفت حسب الله ناحيتى وقال وهو يعيد لف عمامته من جديد :

— يجب أن يحضر اكبر عدد ممكن من الجماعة !

ثم أردف فى اعجاب :

— انه الشيخ محارب !

وعدنا الى النجع مسرعين .

وحينما وصلنا الى الساحة الكبيرة التى تقع أمام الخيمة.. رأينا حمار الشيخ محارب مربوطا فى آخر الساحة مع عدة حمير أخرى .. كان عليه سرج غالى الثمن قيل انه أهدى اليه من أحد زعماء السودان !.. وفوق السرج وضعت (فروة) سوداء لا مثيل لها — كما قيل — فى قريتنا الا عند العمدة الراحل .. وفى مؤخرة السرج علقت مخلاة صوفية صغيرة مزركشة بقصد استكمال الزينة .. وكان الحمار يثنى عنقه ويلوك لجامه ويدق الأرض فى قوة وكأنه يعلن أن مكانته فى دنيا الحمير لا تقل عن مكانة صاحبه فى دنيا النـــاس !

ولم لا ؟ .. أليس فى مقدور الشيخ محارب أن يجعل قريتنا تنقسم الى معسكرين كبيرين متحاربين .. يقف هو على راس

معسكر .. ويقف العمدة - خصمه اللدود - على رأس المعسكر الآخر ؟

لقد قال لى عم عبد الله في احدى المرات :

قبل ظهور الشيخ محارب كان العمدة - وحده - هو سيد القرية .. وكانت البراطيم قبيلته .. التى تملك ثلث أطيان القرية - هى سيدة القبائل .. فلما ظهر الشيخ محارب - الذى ورث عن أبيه عدة مراكب فى النيل - ساعد قبيلته فاشترت نصف أسطول الجزيرة .. وأصبحت (الكوامل) - سيدة البحار - تنازع البراطيم على سيادة القرية .. بل واستطاعت أن تقهرهم فى أكثر من موقف كما يؤكد عم عبد الله ! .. اذن سلام قريتنا فى يد الشيخ محارب .. ان أراد جعله يسود .. وان لم يرد سادت مكانه النبابيت !

دخلنا الخيمة فوجدنا بضعة شيوخ من قبيلتنا .. بعضهم يرحبون بالشيخ محارب وبعضهم تعلقت أعينهم بباب الخيمة فى انتظار قدوم أبناء قبيلتنا ليكون الترحيب أكبر وأروع ! .. وكيف لا والشيخ محارب وقف معنا ضد البراطيم ؟

كان الشيخ محارب يجلس على سرير حبال وحده .. وعلى السريرين اللذين عن يمينه ويساره جلس عدة شيوخ من قبيلته .. وتناثر أبناء قبيلتنا فى الخيمة بين جالس وواقف وداخل . وما ان رأى حسب الله الشيخ محارب حتى هتف به فى سرور :

- أهلا بشيخ العربان !

فرد عليه الشيخ محارب وهو يقف له :

- أهلا حسب الله .

وتصافحا بقوة وشوق !

كان الشيخ محارب طويل القامة .. أطول من حسب الله ..

شاربه الأصفر الغزير الذى خالطه المشيب .. تحت أنفه المقوس .. يعطى احساسا بأن هذا الرجل خلق ليأمر فيطاع !

شد على يدى فى قوة وهو يصافحنى وقال وقد خيل الى انه يبتسم :

– ما شاء الله .. أصبحت كالرمح يا ولد !

ثم التفت الى حسب الله وقال :

– هل علمتموه ضرب النبوت ؟!

فأجابه حسب الله ضاحكا :

– بل أصبح بارعا فيه الى درجة الخطورة !

فجلس وهو يلملم أطراف عباءته الحمراء وبقعة من الشمس تصافح صفحة وجهه النحاسية تسللت اليه من بين نخلتين عاليتين خارج الخيمة .. ثم التفت الى أحد شيوخ قبيلتنا وقال:

– هل قلت للشيخ عثمان ؟ (أبى) .

فرد هذا عليه :

– نعم .. ارسلت من يقول له انتظر الشيخ محارب فى البيت !

ومد الشيخ محارب يده الخشنة فتناول كوبا من الشاى مدها اليه غلام صغير فى صينية صفراء .. أخذ منها رشفة اتت على نصفها والتفت ناحيتى وصوب فى عينيه اللتين تشبهان عينى الصقر وقال :

– ماذا جرى لعقولكم يا مساعيد ؟ .. أجننتم ؟!

فرد عليه حسب الله قائلا :

– انه الشيطان .. عليه اللعنة !

فقال الشيخ محارب :

ـ الشيطان لا دخل له .. مصطفى مخطىء أولا واخيرا !

ثم خفض من صوته قليلا وقال لى :

ـ ماذا يقول الناس عنك ؟ .. هل ترضى انفسك الجبن والعـــار ؟

ولما لم أجد ما أقوله له ، استطرد قائلا :

ـ ان أباك رجل طيب والله .. لو أن ولدى وقف منى مثل هذا الموقف الذى وقفته أنت لفلقت راسه بالنبوت !

ثم اعتدل فى جلسته وقال مؤكدا :

ـ النار .. ولا العار !

فقال شيخ من قبيلتنا :

ـ كل شيء يعود الى أصله ان شاء الله .

فرد الشيخ محارب فى انفعال :

ـ طبعا .. لابد أن يعود كل شيء الى أصله .

ثم ســـدد عينيه ـ وقد ومض منهما بريق عجيب ـ فى عينى وقال :

ـ الآن .. سنذهب جميعا الى والدك .. وانت معنا .. ونطلب منه الصــفح .. ونقول له على لســـانك : بنت عمك لك وحدك !

ووقف الشيخ محارب فوقفنا جميعا لوقوفه .. وسرنا معه فى اتجاه بيتنا .. كنت أسير معه كالمنوم .. وسبقنا حسب الله فى خطوات سريعة ليخطر أبى بقدومنا .. واستقبلنا أبى أمـــام البيت .. وبمجرد أن لمحه الشيخ محارب صاح فيه فى لهجة مرحة:

ـ عجزت والله يا رجل !

فرد أبى وقد تهللت أساريره :

ـ بل أنت الذى عجزت !

وتصافحا فى حرارة وكأنهما لم يلتقيا منذ زمن .. واشار الشيخ محارب ناحيتى وقال بلهجة ذات مغزى :

– اتفقنا على كل شىء .. سامحنا ونحن تحت أمرك !

ثم التفت ناحيتى وصاح بى فى صيغة آمرة :

– سلم على ابيك يا ولد وقبل رأسه !

فتقدمت من أبى وأمسكت رأسه بكلتا يدى وقبلت رأسه .. فأحاط عنقى بذراعه وضمنى اليه ولم يتمالك نفسه من البكاء.. فأحسست بقشعريرة تسرى فى جسدى .. هذه أول مرة فى حياتى أرى فيها أبى يبكى .. فقال له الشيخ محارب وكأنه ينهره :

– كفى يا رجل .. أتريد أن تطمع فينا العيال ؟ !

وضحك حسب الله فى سرور والتفت ناحيتى وهو يقول :

– الحمد لله .. هذا أسعد يوم فى حياتى !

وأشار أبى الى داخل البيت وقال للشيخ محارب :

– تفضلوا .

فرد هذا :

– لا .. سأذهب لمقابلة الزعيمة بنت الزعيم ! (يعنى جدتى) .

ثم اكمل قائلا :

– سأفيدك بالنتيجة وعليك الباقى .. هاتوا الركائب !

وهرول عدة شبان ناحية الركائب .. وامتطى الشيخ محارب صهوة حماره القوى .. وشد اليه اللجام .. فرفع الحمار عنقه فى عزة فأصبح أشبه بالجواد منه الى الحمار .. ورفع الشيخ محارب يده بكمها العريض وقال وهو يتحرك :

– نتقابل يوم السبت ... عند الاشراف فى الصلح .. سلام عليكم .

وانعقدت وراءه موجة عالية من الغبار .

**

فى المساء تألف وفد لاحضار أمى من بيت أهلها .. بعد أن علمنا - عن طريق الشيخ محارب - أن جدتى (تواضعت) ووافقت على عودتها الى بيت زوجها .. ذلك لأن وساطة الشيخ محارب - كما قالت - تختلف عن وساطة غيره باعتباره من (طبقتها !) .

تقدمنا أبى وسار الى جواره عمى عبد الرحمن وحسب الله .. وسرت خلفهم مع سالم ابن عمى وعم عبد الله .

واستعدت جدتى لاستقبالنا استعدادا يليق (بمقامها) .. فقد أشعلت ثلاث (كلوبات) - مع أن واحـــدا فيـه الكفاية - ووضعت تحت السقيفة - فى مدخل البيت - حوالى عشرة أسرة من الحبال فرشت عليها كل ما عندها من سجاد قديم ومساند وكأنها تستعرض سلطانها .. وذبحت خروفا كبيرا - قالت لى نجلة فيما بعد انها لم تترك أحدا فى النجع دون أن تخبره بذبحه.. ووجدنا فى استقبالنا خمسة من شيوخ قبيلتها على رأسهم ابن ابنها بدوى - وهو غلام فى الخامسة عشرة توفى والده وجدتى تعتبره رأس أسرتها العريقة !

سلم علينا الرجال وأجلسونا على الأسرة وأقبلت جدتى من الداخل تسلم علينا .. ومع أن العادة جرت بأنه لا يجوز للحماة أن تلقى زوج ابنتها الا أن جدتى استثنت من هذه القاعدة لكبر سنها .. لكنها تقول أن الاستثناء ليس بسبب كبر الســن ولكن السبب هو أن الرجل الذى تستحى من مقابلته لم تلده أمـــه بعـــد ! ..

صافحتنا مرحبة وعندما صافحت أبى نظـرت اليه طويلا وقالت له ساخرة وهى تضغط على الحروف :

- كيف حالك يابن عبد المعطى ؟!

ولم يفعل أبى شيئا غير الابتسام !

وقال لها حسب الله :

ـ هل لك فى سماع نكتة ؟

فردت عليه فى حزم :

ـ اسكت يا ولد !

فقال لها في تصميم :

ـ لابد من ان أسمعك .. اياها !

فلوحت بيدها وهى تتجه الى الداخل :

ـ بعد العشاء !

واتجهت وراءها الى داخل البيت .. فرأيت الاستعدادات تقوم على قدم وساق .. وقف عدة شبان من قبيـلة جدتى أمام قدرين كبيرين .. أحدهما يغلى فيه المرق على أجزاء الذبيحة .. والآخر يمتلىء أرزا .. بينما جلس عدة نساء بجوار أمى حـول عدة صوان يفتتن خبز (النشابى) الرقيق فى الأطباق .

كانت أمى تعمل فى همة ونشاط وقد بدا عليها السرور وان حاولت اخفاءه .. بينما راحت جدتى تشرف على الجميع فتأمر هذا وتنهى ذاك وكأنها قائد في معركة .. وقد رأيتها تصف أحد الشبان بأنه (حمار) لأنه وضع قطعة من (الكبدة) فى أحـد الأطباق .. (والكبدة والكلاوى والكرشة) تعتبر عيبا فى موائدنا التى تنصب للضيوف .. وبين الفينة والفينة كان يأتى (بدوى) ـ ابن خالى ـ ليشرف هو الآخر على الاستعدادات .. يشرف تحت (اشراف) جدتى .. والاشراف على واجبـات الضـيافة يعتبر أولى مراحل السـيادة كما تقول جدتى .. وعندما لمحتنى أقـف فى مدخل الموقد صاحت بى أن اعمل شيئا فاخترت لنفسى أسهل مهمة يمكن أن أقوم بها .. الا وهى تفتيت خبز النشابى فى الأطباق .. ولما وقفت فوقى أثناء (اشرافها) قلت لها مداعبا :

ـ ألكل مناسبة ذبيحة يا جدة ؟ .. لم هذا الاسراف ؟

فنظرت الى من طرف عينها وقالت وهى تشير ناحية أمى :

ــ ما الذى يليق بمقام أمك فى نظرك ؟ .. دجاجة ؟

ثم لوت شفتها وكأنها تقول : « ما الذى ادراك أنت أو أباك بمثل هذه الأشياء ؟!

وتقدم الشبان فرفع كل واحد منهم صينية على راحتــه وتقدموا بها فى صف صغير أمام الرجل الذى يقف أمام القــدر الأول .. فوضع لهم المرق على اطباقهم .. ثم تقدموا الى قدر الأرز فوضع لهم الارز فوق الخبز المغمور بالمرق ثم عادوا مرة أخرى الى قدر المرق فوضعت لهم ــ معا ــ نصف أجزاء الذبيحة .. أما نصفها الآخر فسيحمل مع أمى حيث تقام وليمة أخــرى ــ نسائية ــ فى بيتنا !

تناول ابى ومن معه العشاء .. اما انا فقد تناولت العشاء بالداخل مع الشبان الذين كانوا يقومون بالخــدمة حيث كان نصيبنا (عدة البطن) من (كبدة وكرشة) وما شابه .. ثم تحرك الموكب الى بيتنا فى طابور ليس بالقصير .. الرجال فى المقدمة .. والنساء فى المؤخرة .. والغلمان الصغار يحملون الكلوبات لانارة الطريق ·· وما ان وصلنا البيت حتى صاحت نجلة فى فرح :

ــ غدا نبدأ فى عرس مصطفى ·· ونكيد الخصوم !

ثم التفتت الى احدى النساء وقالت لها :

ــ لم يمض يوم واحد على اخراجى (للعمل) الذى (عملته) البحراوية لأخى حتى عادت المياه الى مجاريها .. ارأيت ؟!

***

اغلقت على باب حجــرتى وتمــددت على السرير ·· حاولت ان اجد شخصيتى الحقيقية لأحاسبها وتحاسبنى ·· فأنا لا أجدها

هنا الا حينما أخلو الى نفسى .. الى أين وصلت ؟ .. الى الآن أنا لا اكاد أصدق ما يجرى حولى .. هل الانسان مسير أم مخير ؟ .. ما هو حكمى على نفسى ؟ .. هل أنا على حق ؟ .. أأنا مخطىء ؟ .. ماذا لو عدت ورفضت الزواج من سلمى ؟ .. ما الذى سيحدث ؟ .. أمى ستغادر البيت مرة أخرى ؟ .. ابى سيركب راسه ويتزوج من جديد ؟! .. يتبرأ منى ؟ .. يأتى الشيخ محارب مرة أخرى .. الشيخ محـارب قال لأبى « اتفقنا على كل شىء » .. ما معنى هذا ؟ .. الزواج من سلمى ؟ .. اتزوج ؟ ..

ونادية ؟ .. انتهت ؟ .. خرجت من حياتى ؟ .. نادية ؟ .. نادية خرجت ؟ .. معقول ؟ .. أهرب ؟ .. كيف ؟ .. ولم لا ؟ .. أسافر دون أن أخطر أحدا .. أجل .. أسافر .. الا توجـــد وسيلة للموت غير الانتحار ؟ .. ما عقاب من ينتحر فى الآخرة ؟ .. كافر ؟ .. جهنم .. ترى ما شكل جهنم ؟ .. أحد العلماء يقول انه اكتشف مصلا بفضله يعيش الانسان ثلثمائة سنة .. عالم مغفل ! .. أكثر من مغفل ! .. فى اليابان الزلازل لا تكف .. هنا لا تحدث زلازل .. طبيعة بلادنا هادئة .. مصيبة ! .. جدتى شجاعة .. أشجع منى .. أنا جبان ! .. صديقى السكندرى (النبراوى) يقـول لى « شـخصيتك قوية ! » .. مغفل هـــو الآخر .. كل الناس مغفلون .. هل المحتضر يرى عزرائيل ؟ .. ما شكل عزرائيل ؟ .. أستغفر الله العظيم !

***

استيقظت من النوم على أصوات طلقات نارية مصـــحوبة بالزغاريد .. كانت الساعة حوالى العاشرة صباحا .. انهكنى التفكير ليلة أمس فتأخرت فى النوم .. فتحت باب حجـــرتى

واخرجت رأسى أستطلع الخبر .. رأيت عشرات النسوة فى بيتنا غاديات رائحات .. تحت السقيفة عدة (بروش) فرشت بجانب بعضها ٠٠ كوم عليها قطع ملابس زاهية ٠٠ ملابس نسائية ضمت جميع الألوان .. أحمر ٠٠ أخضر .. أصفر ٠٠ برتقــالى ٠٠ لمحتنى نجلة ٠٠ صاحت بى مهللة :

ـ صح النوم يا أمير !

أمير ؟ ٠٠ أمير هنا معناها العريس ! .. التفتت النسوة ناحيتى وزغردن ٠٠ أغلقت باب الحجرة وجلست على السرير ٠٠ أشعلت سـيجارة ٠٠ اذن هى (الخطبـة) أحضرت لتذهب بهــا النسوة ـ كالعادة ـ الى بيت سلمى .. المسألة جد .. جــد فعلا ٠٠ أنا سأتزوج ! ٠٠ أتزوج حقا ؟ ٠٠ أهذا هو الزواج ؟ لم يكن هكذا فى مخيلتى ! هل أنا أحلم ؟ . ربما ! ٠٠ أنا أجلس الآن على السرير ٠٠ فى الخارج ضجة ٠٠ فى يدى سيجارة .. الدخان يتصاعد منها ٠٠ أجل ٠٠ هو دخان حقيقى ! ..

عادت طلقات الرصاص من جديد ٠٠ أعقبتها الزغاريد .. فتح الباب ودخلت نجلة ٠٠ انها فرحة ٠٠ الغريب انها فرحة !

ـ لماذا تجلس هكذا يا أمير ؟

أمير فى عينك وعين الذين خلفوك ! .. ما الذى اخركم الى هذا القرن ؟ .. كيف يحب الانسان من لا يحترمهم فى باطنه ؟ كيف ؟

ـ الا تتفرج على (خلق) العروسة ؟

خلق ؟ .. أأسمه خلق يا ذوى الحسب والنسب ؟ ٠٠ نادية تقول انها تحكم على محدثها من كلماته ٠٠ ان جاءت كلمة غــير منسجمة مع الجملة تحس بها كالنشاز ٠

ـ عشرين قطعة أحضرناها للعروسة .. كلها حرير من الغــالى ٠

الغالى ؟ .. أهذه الألوان الفاقعة هي التى سيراها عليها صديقى (النبراوى) ؟ .. لشد ما أحبك يا نبراوى وأحب دعاباتك الساخرة .. ولشد ما أكرهك الآن !

ـ مالك ؟

قالتها نجلة فى انزعاج .

ـ لا شىء !

ـ فيم تفكر ؟

ـ لا شىء !

حدقت فى وجهى مستغربة .. أنا أعرف سر استغرابك .. تقولين « (العمل) وأخرجناه .. ماذا تبقى ؟ ! » .

ـ قم ارتد ثيابك .. الرجال بدءوا يتجمعون فى الخارج .

تحاملت على نفسى لأرتدى ثيابى .. وقالت نجلة :

ـ هـذا اليوم انتظرته طول عمرى .. هذا اليوم ليس يوم فرحك .. ولكنه يوم فرحى انا !

افرحى .. ما أسعدك .. وما أشقانى .. استطردت نجلة :

ـ كلما رأيت واحدة من صديقاتى فرحة بزواج أخيها أكاد ابكى .. جاء اليوم الذى سأضحك فيه من قلبى !

أنا فى واد وأنت فى واد .. لماذا لم نولد فى اليابان ؟!

ـ أتكلم نفسك ؟

كانت تكلمنى وهى تحدق فى وجهى وفمها نصف مفتوح .

ـ لا !

ـ أكمل ارتداء ثيابك .. هيا يا أمير !

فتحت نجلة الباب وصاحت فى النسوة فى فخار :

ـ الأمــــير !

استقبلتنى النسوة بموجة عالية من الزغاريد .. ما ان تخطيت عتبة الحجرة حتى بدأت تعليقاتهن :

ـ صبي (جميل !) .
ـ مثل الزرع الأخضر !
ـ شبه أبو زيد الهلالي !

غضضت الطرف وأسرعت الى الخارج .. وجدت الخيمة قد امتلأت بأبناء القبيلة .. شيوخا وشبانا .. ما ان رأوني قادما حتى هبوا واقفين بما فيهم أبي .. وأيديهم مبسوطة لمصافحتي.. عندما تقدمت أصافحهم اعتلى حسب الله أحد اسرة الحبال وصوب بندقيته الى السماء وأطلق عدة أعيرة نارية .. وجاوبته عدة بنادق أخرى مع شبان القبيلة .. جذبني أبي اليه وعانقني طويلا .. نزل حسب الله من السرير فعانقني وقبل جبهتي .. وأجلسوني في صدر المجلس .. ودارت أكواب (الأباريق) على الحاضرين .. انتابتني مشاعر متباينة .. ولمحنا النسوة خارجات من بيتنا في طابور طويل في اتجاه بيت عمي عبد الرحمن .. كل واحدة تحمل على رأسها طبقا كبيرا من الخوص الملون عليه قطعة قماش زاهية .. بعض النسوة يضعن على أطباقهن أقمعة السكر .. وقد حملن الدفوف ورحن يغنين أغنية جماعية تعلن عن مهمتهن .. احدى النساء تبدأ الغناء والباقيات يرددن وراءها :

جبنا شـــليلك وجينا — والطبل بحرى المدينـــة
كلـــه كرامـــة لابوك — يا بنت شيخ القبيـــلة

***

جبنـــا شـــليلك وعجب — والطبل بحـرى البـــلد
كلـــه كرامـــة لأبـوك — يا بنت شيخ العـــرب

مر طابورهن حتى غاب عن أبصارنا وتلاشت أصواتهن رويدا رويدا .. وظللنا في مكاننا من الخيمة حتى جـــاء من يعلن أن

النسوة قد عدن ادراجهن .. وبدأ موكبنا يتحرك صوب بيت عمى .. ووجدناه فى استقبالنا وبصحبته عدة رجـــال من قبيلتنا .. ودخلنا (الديوان) الملحق ببيته — وبعد أن جلسنا على الأسرة التفت أبى الى حسب الله وقال له :

— تفضل يا شيخ حسب الله !

وساد الصمت .. ووقف حسب الله .. وقال بطريقـــة خطـــابية :

— يا شيخ عبد الرحمن .

فرد عمى دون أن يرفع رأسه :

— أى والله ! (نعم) .

قال حسب الله بنفس الطريقة الخطابية :

— مصطفى ابن الشيخ عثمان يريد أن يحتمى فى الحسب والنســـب !

ولم يرد عمى .. رد أحد الشيوخ الجالســـين بجواره — خال سلمى — ووضع يديه فوق عمامته الكبيرة وقال :

— مرحبا به .. ان لم تحمله الأرض .. حملته الرأس !

قال حسب الله :

— ماذا تريدون يا أهل الحسب والنسب ؟

رد الشيخ خال سلمى :

— الذهب والفلة والخلق ! (الملابس) .

فمد حسب الله يده بمنديل ملفوف وقال :

— هذا هو مهر بنت الأصل .. هو الذهب والفلة والخلق!

فمد الشيخ يده وتناول المنديل وقال دون ان يفتحه :

— قبلنـــا !

فنظر حسب الله ناحية الجالسين وقال :

ـ بنت الحسب والنسب مهرها غال .. مائة جنيه يا عرب !

ثم قال وهو يهم بالجلوس :

ـ الفاتحـــة .

وقرئت الفاتحة التى تعتبر ـ وحدهـا ـ عهدا بالزواج .. ثم نظر حسب الله ناحيتى وقال :

ـ مبروك يا أمير .

وانهالت التهنئة من الجالسين .

ـ ربنا يهنيكم يا أمـــير .

ـ زيجة أبدية يا أمير !

ـ تغلبها بالمال .. وتغلبك بالعيال يا أمير !

ثم دخل علينا سالم ـ ابن عمى ـ آتيا من داخل البيت.. يحمل صينية نحاسية كبيرة قد امتلأت بالبلح .. فملأ حسب الله يده بكمية من البلح ورشه فوق رأسى .. ووزع الباقى على الموجودين .

وعند عودتنا سألنى عم عبد الله :

ـ كم دفعتم فى المهر .. عشرون أم ثلاثون ؟

قلت :

ـ مائة .. حسب الله قال مائة .

لكنه أغمض عينا وفتح أخرى وقال :

ـ المائة هذه أمام النـــاس .. لكنها ـ طبعا ـ عشرون او ثلاثون !

***

ظلت النساء تضرب بالدفوف فى بيتنا الى ما بعـد منتصف الليل .. رددن عدة أغنيات مشهورة .. الا أن الأغنية التى سادت ليلتها هى التى تتحدث عن الذين (يشقون) المـدن بأسـفارهم الكثيرة .. ويقتحمون الدروب الخطـرة .. وكان اسـمى يتردد خـلال الأغنيـة باعتبار أن الأسفار لا يجيـدها غيرى ! .. اما بقية الناس فهم مجرد (قش) من النوع الذى تدوسه « البهائم » بأقدامها .. أو مجرد « عفش » من صنف « البروبى » ـ أعواد القمح اليابسة ـ وما الذى يدرى هؤلاء بالأسفار ؟! وكان مطلع الأغنية :

ايش خبرك للسـفر	يا قش البهـايم
السـفر لمصـطفى	شـقاق المـداين

***

ايش خـبرك للسـفر	يا عفـش البروبى
السـفر لمصـطفى	شـقاق الدروب

وبين كل لحظة وأخرى تبعث نجلة فى طلبى .. فاذا ذهبت اليها اتعثر فى مشيتى بين النساء الجالسات على (البروش) بدفوفهن وقد اندمجن فى الغناء .. صاحت فى مرح :

ـ أين العـادة يا أمير ؟

فأخرج من جيبى بضعة قروش أعطيها لنجلة فتقوم بنثرها عليهن وتنطلق الزغاريد .. وتكررت حـكاية (العادة) هذه أكثر من عشر مرات .

فى الخارج تجمع الشبان امام الخيمة ـ الشبان فقط ـ وقد ارتدوا احسن ما عندهم .. ووقف عشرة منهم في صـف

يرددون اغنية (العراسة) الشعبية .. وأمامهم وقف شباب يبدأ فى غناء (الآدوار) فيرددون اغنيتهم بمجرد انتهائه من القاء (الدور) مع ضربات الأكف .. وردد الشبان أغنيات كثيرة كانت أهمها الأغنية التى تنصح من يريد الزواج أن يبحث عن ذات (الأصل) ويصرف النظر عن جميلة الألوان والأصباغ :

« سيب اللون نقى الأصيلة .. وسيب اللون »

وفى آخر الليل كادت تنشب معركة بين شبان عائلة (النواصر) وشبان عائلة (المقاطير) – والجميع من قبيلتنا – لولا أن تدخل الباقون بمساعدة عم عبد الله الذى جاء على أثر الصياح .. واختتم عم عبد الله الليلة بأن تربع على الأرض وجلس الشبان حوله وراح يغنى الأغنيات السودانية التى تعلمها فى السودان اثناء اقامته هناك فترة من شبابه :

قالت لى باريدك	قلت زى مين ؟
قالت زى عينيه الجوز	شمال ويمين !

فصفق له الشبان وهللوا .. وكان ختامها مسكا !

***

الفصل الثالث عشر

استيقظت من الفجر .. فاليوم يوم (الزيارة) .
سنزور ضريح الشيخ (عامر) الموجود على الشـــاطىء الشمالى المقابل لجزيرتنا .. اذ أن عدم زيارة العريس والعروس للشيخ عامر — كما قالت لى نجلة — تنتج عنها أضرارا جسيمة أهمها أن الزواج لا يتم !

نزلت فى مركب شراعية صغيرة زينهـا صاحبهـا بعدة قطع من القماش الملون جعلها فى شكل أعلام صغيرة .. وعلقهـا فى مقدمة ومؤخرة المركب .. وعلق واحدة على أعلى الشراع .. وكان بصحبتى سـبعة من شـــبان قبيلتنا كان أبرزهم (جاد) الذى عرف بوسامته وأناقته .. وكان يعلق على كتفه مخلاة صغيرة مزركشة بداخلها هدية الأسرة للشيخ عامر .. وهدية الأمير للعروس .. وعلى غير بعيد من مركبنا وقفت مركب أخرى نزلت بها سلمى وبصحبتها عدة فتيات وثلاث سيدات .. ولم يكن يظهر من سلمى غير الكفين والقدمين .. فبمجرد اقترابها من المركب أسدلت (شالها) الحريرى الأصفر على وجهها كى لا المحها — تقاليدنا تمنع رؤية العريس لخطيبته بمجرد اعلان الخطبـــة ! .

وعندما صعدت الى (السقالة) الموصلة الى المركب نظرت اليها خلسة وهى ترفع طرف ثوبها فتظهر ساقيها الجميلتين اللتين أكسبتهما الحناء لونا زادهما جاذبية ! .. وانتابنى شعور

لا أدرى كنهـه ! .. ولما أطلت النظر لحنى (جـاد) فنظر ناحية الماء ـ بعيدا عنى ـ وقال بلهجة ذات مغزى :

ـ معنا واحد .. عينه تفلق الحجر !

فتنبهت لعبارته وحولت بصرى بعيدا .. وتتابعت الفتيات على (السقالة) ووقف الشبان على حافة مركبنا يحملقون فيهن بأنفاس مبهورة .. وبدأت تعليقاتهم الهامة تتردد .. قال أحـدهم :

ـ اكل الأرز جميل !

فرد عليه آخر :

ـ بل الجوافة الذ طعما !

نزلت الفتيات الى المركب ولم يكن معهن من الرجال غير صاحب المركب العجوز .. وعندما بدأت المركبان فى التحرك صاح صاحب مركبنا يخاطب زميله فى المركب الأخرى :

ـ ناس فى نعيم .. وناس فى جحيم !

فأجابه الآخر فى شماتة :

ـ كفاك الأمـير !

فرد هذا في اسى :

ـ وماذا سأفعل بالأمير ؟!

ثم غرس المدراة فى الماء .. واتكأ عليها بكل قوته وقال فى صوت مكتوم :

ـ الدنيا حظو .. و .. و .. ظ !

وتعالت ضحكات الشبان فجاوبتها ضحكات الفتيات كأنها زقزقة العصافير .

وفى منتصف النيل .. اقتربت المركب من جزيرة (العرب)

الخالية من السكان والتابعة (لمستعمرات) جزيرتنا .. فصاح احد الشبان فى فرح :

– هيا نمرح قليلا فى جزيرة العرب .. ثم نستأنف الرحلة.
فتعالت صيحات الشبان فى استنكار :

– أتريدنا أن نغرق ؟

– الشيخ عامر يغضب !

– أهذا كلام يقال ؟

ثم قال المراكبى فى لهجة العالم ببواطن الأمور :

– فى احدى المرات .. انقلبت بنا المركب .. لأننا زرنا الجزيرة قبل زيارة الشيخ عامر !

ثم أردف موضحا :

– الشيخ عامر سريع الغضب .. ولا يقبل زيارة من لم يقصده رأسا !

ومررنا بجوار جزيرة العرب بخضرتها الزاهية والتى أغدقت عليها الطبيعة بغير حساب .. ورسونا على الشاطىء الشمالى ..

ونزلت مع الشبان فى اتجاه ضريح الشيخ عامر .. وأبت الفتيات أن ينزلن الا بعد ان نتوارى عن أعينهن .. وبعد مسيرتنا بمسافة كبيرة التفت خلفى فرأيت موكبهن يسير على مهل فى اتجاهنا .. ولما دخلنا الضريح تقدم (جاد) وخاطب الضريح بكلمات محفوظة قائلا :

– يا شيخ عامر .. انك لم تخذلنا ابدا .. ابنك مصطفى جاءك لتقف معه .. واليك طلباتك .. الفاتحة !

ثم خلع المخلاة من كتفه واخرج منها مقدار (قدح) من غلة الذرة .. وضعها فى تجويف فى الحائط المقابل للضريح .. ووضع معها عشرة قروش .. وعلق على الضريح علما صغيرا من

القماش الأبيض قد طلى الى نصفه بالحناء .. ورسم على النصف الآخر ثلاث دوائر صغيرة .. ثم قرأنا الفاتحة وخرجنا مسرعين لنفسح الطريق لسلمى وموكبها .

وعند خروجهن تقدم جاد منهن وناول احدى السيدات المخلاة الصغيرة بما تحويه - قمعين من السكر وعدة زجاجات صغيرة من الكلونيا (بنت السودان) - وقال لها :

- هاكم زيارة العروسة !

وعند عودتنا استقبلتنا جميع البيوت التى مررنا بها فى النجع بالزغاريد وصار كل من يلتقى بى فى ذلك اليوم يصافحنى قائلا :

- زيارة مقبولة .. يا أمير !

فأرد :

- تقبلنا .. وتقبلك !

بعد صلاة العشاء مباشرة تجمع أبناء قبيلتنا - شيوخا وشبانا - حول شاعر قريتنا .. الذى أمسك بدف وراح يضرب عليه بأطراف أصابعه فى لحن رتيب مقبول .. وبدأ يروى قصة الصراع بين أبو زيد الهلالى والزناتى خليفة .. وورد ذكر الأبطال من الفريقين المتحاربين .. السلطان حسن .. الأمير علام .. السلطان معبد .. دياب بن غانم .. الأمير منازع .. الأمير نجدى .. وعندما وصل شاعرنا - الذى لا يأخذ أجرا - الى وصف مبارزة بين الأمير منازع والأمير نجدى .. تضاحك أبناء قبيلتنا وصاحوا :

- أين نجدى ؟

وهب رجل من قبيلتنا - اسمه نجدى - وغادر الخيمة على عجل .. ومضى الشاعر يصف المبارزة التى انتهت بمصرع

الأمير نجدى ٠٠ عند ذاك ـ كما يقول الشاعر ـ غضب أبو زيد الهلالى لأن الأمير نجدى صهره .. فأقسم ليقتلن منازعا ولو هرب الى آخر الدنيا ٠٠ ثم ضربه بالسيف فطار رأسه في الهواء ٠٠ وهنا ظهر نجدى ـ ابن قبيلتنا ـ وصاح عند باب الخيمة ٠

ـ الله أكبر !

لكن أبو زيد لم يكفه هـذا ٠٠ فقد كان غاضبا لمقتل صـهره أشد الغضب .. هجم على الأعداء فى قوة ووصف الشاعر هذا الهجـــوم :

« أبو زيد سحب السيف ٠٠ سكر ترجم من غير كيف ٠٠ بقى فى الخلايق يكف .. يشرق ياخد عشرين ٠٠ يغرب ياخــــد تلاتين .. قرضهم ٠. قل عددهم ٠. جاب الزايد نقصان » ٠

وانتابت الموجودين نوبة من الحماس ٠٠ وكان أكثرهم حماسة الشيخ نجدى كان يتابع الشاعر عند كل مقطع :

ـ اضرب .. اقتل .. الكلاب ٠٠ أولاد الكلاب !

وتحمس عم عبد الله فأمسك عصاه من طرفها ورفعها الى أعلى وهزها قائلا :

ـ فتحت نفسنا للقتال والله !

ثم التفت الى أحد الشبان بجواره وقال له :

ـ اختار لنا قبيلة وافتح معها شكلة ٠٠ نريد أن (نفرط) ســـواعدنا !

ثم مد عنقه يتابع الشاعر .

واقترب منى حسب الله وقال لى هامسا :

ـ غدا يوم (الدعيان) .. ستتعب كثيرا من ركوب الخيل .. تسلل دون أن يراك أحد .. واذهب لتنام ! ٠

***

الفصل الرابع عشر

كان ذلك فى الصباح الباكر عندما وقعت المفاجاة .. لم اصدق عينى حينما رايتها فتحت عينى واغلقتهما عدة مرات قبل ان اصدق نفسى .. ولكنها هى ! .. ايمكن ان يحدث هذا ؟ .. نادية .. نادية تأتى الى بلدنا ؟ .. مستحيل ! .. لكن هذا حدث !

التقيت بها مصادفة فى الساحة الكبيرة أمام الخيمة .. كانت تبحث عن بيتنا يرافقها غلام صغير من قبيلتنا .. بينما وقفت بعض النسوة أمام البيوت المطلة على الساحة يحملقن فيها فى عجب .. حينما لمحتنى لم يتغير شيء في تعبيرات وجهها .. نظرت الى وجهى ثم حولت نظرها عنى .. وعادت تحدق فى وجهى مرة أخرى فى دهشة واستغراب .. وقفت للحظات احملق فيها دون ان اتفوه بكلمة واحدة .. لكنها عاجلتنى فى فرح :

ــ الأمر غريب .. هه ؟

هتفت وكأننى أريد أن أبكى :

ــ نادية ؟

كنت اتمنى لو أعانقها .. لكننى تنبهت للنسوة أمام الأبواب فاغرات الافواه فى دهشة .. فصافحتها بكلتا يدى .. ونظرت الى وقالت ضاحكة :

ــ ما هذه الملابس ؟ .. وما هذه العمامة الكبيرة ؟ .. كدت لا أعرفك والله ! .

أمسكت بيدها وبلا شعور منى وضعتها تحت ذراعى وسرت بها فى اتجاه بيتنا .. سمعت احدى النسوة تقول للباقيات فى انزعاج :

ــ انظروا .. انظروا ماذا يفعل ابن عثمان !

تنبهت .. ابعدت ذراع نادية .. قبل ان نصل الى بيتنا بقليل توقفت ..

سألتنى :

ــ ماذا بك ؟

قلت دون أن أنظر اليها :

ــ لا شىء !

شعرت بأن الدنيا تدور بى .. تحولت فرحتى بلقائها الى خوف .. الى اين اذهب بها ؟ .. مرت لحظات وانا واقف فى مكانى وهى تحدق فى وجهى دون أن تتفوه .. بعض النساء تركن البيوت وتجمعن في طرف الدرب المؤدى الى بيتنا .. تذكرت حسب الله .. عدت بها مرة أخرى فى اتجاه بيت حسب الله .. سألتنى فى دهشة :

ــ ماذا حدث ؟

ابتسمت بلا معنى .. وقلت :

ــ لا شىء !

أخلت لنا النساء الطريق فى ذعر وكأنهن يخشين من شىء ! .. توقفت أمام باب حسب الله هنيهه .. طرقت الباب .. أطل علينا ابنه .

ــ أبوك هنا يا حامد ؟

فغر الغلام فاه .. وتطلع الى نادية فى دهشة دون ان يرد

.. أعدت عليه السؤال فى ضيق .. تلجلج وهو يقول :
ـ لا .. لا !
قلت له :
ـ افتح الديوان !
ادخلت نادية الى الديوان واغلقت بابه المؤدى الى الخارج
.. وقلت للغلام :
ـ ابحث عن أبيك حالا .
راحت نادية تتطلع الى السقف .. احسست بضيقى ..
قالت فى افتعال :
ـ بلدكم جميلة !
حاولت أن أسيطر على نفسى .. قلت :
ـ مثل اسكندرية ؟
مدت ساقيها الى الأمام وراحت تتحسسهما وقالت :
ـ مناظرها خلابة .. أتمنى أن أعيش فى جزيرة كهذه !
سمعت صوت حسب الله .. دخل علينا وصافح نادية
بحرارة ـ قدمته لها :
ـ حسب الله .. ابن عمى .. وأعز انســان لى فى البلد .
ابتسمت له نادية فى سرور .. وقلت لحسب الله :
ـ الآنسة نادية عزت .. زميلتى فى العمل و ...
قال باسما :
ـ أنا فاهم !
دهشت لكلمته .. ماذا يعنى ؟ ..
خرج حسب الله من الباب المؤدى الى داخل البيت ..
خرجت وراءه .. استوقفته .. وقلت له هامسا :
ـ أنا فى موقف حرج .. سأشرح لك الأمر .. أريدك أن
تساعدنى !
قال وقد بدا عليه الاهتمام :

ـ الا تنتظر حتى نحضر بعض الطعام ؟
قلت :
ـ يستحسن أولا أن أشرح الأمر ٠
أشار الى أن أتبعه الى داخل البيت ٠٠ وقفنا تحت السقيفة .. شرحت له علاقتى بنادية ٠٠ كنت منفعلا اتكلم فى حرارة ٠٠ وتعبيرات وجه حسب الله تدل على أنه قدر موقفى ٠٠ لكنه قال لى :
ـ وبنت عمك ؟
قلت :
ـ لست ادرى .. دبرنى أنت !
قال وهو يقلب كفيه :
ـ ولم لم تخبرنى من البداية .. قبل ان يبدا العرس ونتورط ؟
قلت فى حيرة :
ـ هذا هو ما حدث .. خلنا أمام الأمر الواقع !
فكر قليلا ثم قال :
ـ لا تحمل هما .. الله موجود !
ثم أشار الى أن اذهب لاجلس بجوارها الى أن يلحق بى ... لكننى قلت فى لهفة :
ـ ماذا ستفعل ؟
قال فى ثقة :
ـ سأتصرف ٠٠ دع الأمر لى !
ومع عجزى عن تصور ما سيفعله تمنيت لو أعانقه ٠٠ وعدت لأجلس بجوار نادية ٠٠ وسمعنا صهيلا متواصلا لجواد فى الخارج ٠٠ وسألتنى نادية :
ـ أعندكم خيل هنا ؟
ـ نعم ٠

قالت فى سرور :

ــ اتمنى لو أركب حصانا !

سمع حسب الله كلمتها اثناء دخوله علينا .. فقال لها باسما :

ــ سأحقق رغبتك ٠

قلت له :

ــ لكن النساء هنا لا تركب الخيل !

قال حسب الله متوددا :

ــ لكن نادية تختلف عن غيرها !

ابتسمت نادية فى حياء .. واستطرد حسب الله يخاطب نادية

ــ غدا .. نذهب ثلاثتنا ومعنا ثلاثة جياد .. الى الشاطىء الغربى المقابل لجزيرتنا .. حيث الماء والصحراء والحرية الكاملة!

سرت نادية كثيرا ٠٠ طفح وجهها بالبشر ٠٠ وشعرت أنا بارتياح كبير .. واحببت حسب الله كما لم أحبه من قبل ..

وعاد الجواد يصهل فى الخارج ٠٠

ولكزتنى أختى نجلة قائلة :

ــ الا تشبع نوما ؟ ٠٠ الم تسمع صهيل الخيل ؟ ٠٠ قم الى (الدعيان) يا أمير ٠٠ فقد حضر الفرسان بخيولهم !

***

كانت مظاهرة من الخيل ٠٠ أكثر من عشرين جوادا تقف أمام الخيمة ٠٠ نزل منها فرسانها من شباب قبيلتنا وربطوها فى طرف الساحة ٠٠ وكان واضحا انهم جمعوها من أصدقائهم من مختلف أطراف الجزيرة ٠٠ أبرزها كان جواد شيخ البلد الأشقر ٠٠ قيل انه لم يهزم قط فى سباق ٠٠ بل قيل انه هزم كل الجياد المشهورة

فى القرى المجاورة أثناء سباق موالد الشيخ عامر ‥ كانت أشـعة الشمس تنعكس على ظهره فتحدث به تموجات فيبدو كأن له عدة ألوان مختلفة .

دخلت الخيمة فسلمت على الشبان وجلست بينهم ‥ وأخـذ الناس يتجمعون وبدأ بيتنا يمتلىء بالنساء والفتيات ‥ فاليوم من الأيام التاريخية فى حياة العريس ‥ فى النهار : (الدعيان) على ظهور الخيل ‥ وفى الليل (الحنه) .

جلس الفرسان بملابسهم الزاهية فى ركن وحدهم ‥ جلست معهم ‥ وزعت على الفرسان — أولا — أكواب اللبن المحلاة بالسكر ومعها قطع الخبز — المصنوعة خصيصا لهذه المناسبة — على شـــكل أصابع الموز .

بعد جلوسى بنصف ساعة صاح رجل قادم من ناحية البيت فى لهجة آمرة : « الامير يلبس ! » ‥ غادرت الخيمة الى البيت وتبعنى حسب الله ‥ دخل معى الى احدى حجرات البيت ‥ بدأ يخلع عنى الملابس القديمة ويلبسنى — بيده — الملابس الجـــديدة ‥ تجمعت النساء خارج الحجرة ورحن يزغردن ويضربن بالدفوف ‥ فاللحظة هى لحظة (لبس الامير) التى لا تتكرر ‥ ارتديت القميص الابيض والسروال الطويل ‥ والصديرى الحريرى ‥ — وضعت فى جيبه رسالة نادية — ‥ ثم ارتديت الزعبوط ‥ وناولنى حسب الله سيفا مستقيما قد وضع فى جرابه علقته على كتفى اليسرى ‥ وأمسكت سوطا بيدى اليمنى ‥ ثم ربط سكينا — بجرابهـــا — فى ذراعى اليسرى — فوق القميص وتحت الزعبوط — ‥ وربط حجابا جلديا له قلادة جلدية مجدولة فى ذراعى اليسرى أيضا ولكن تحت القميص ‥ ثم وضع فى خنصر يدى اليمنى خاتما من الفضة ‥ فتح حسب الله البـــاب وما ان خرجنا حتى تجـددت الزغاريد بقوة وتعالت دقات

الدفوف فى عنف ·· وتبعتنا النساء الى الساحة حيث كان الفرسان قد امتطوا صهوات جيادهم ووقفوا ينتظروننى فى صفين بديعين·· ما ان رأونى حتى نزلوا من على جيادهم وأمسكوا بأعنتها ·· أمسك حسب الله بالجواد الأشقر وقال لى فى سعادة وحماسة :

ـ اركب يا أمير !

وأمسك حسب الله بجواد أبيض وقال :

ـ الوزير ·· يركب !

وتقدم جاد وعمامته (بشراشيبها) الخضراء يرفرف طرفهـــا فى الهواء وامتطى صهوة الجواد الابيض ·· وركب بقية الفرسان ·· وبدأت النساء تغنى أغنية المناســـبة وضربات الدفوف قد اختلطت بأصوات طلقات الرصاص :

شدوا لك حصانك يامصطفى　　قـــوم تعـــال اركب
والولده الفتوه يا مصطفى　　بيلعبـــوا الملعب

وتحرك الموكب ·· وتبعنا الرجال والنساء الى الكوبرى آخـر حدود نجعنا ·· وقال لى أبى وهو يكاد يطير من الفرح :

ـ لا تنسوا أحدا ·· ادعوا كل الناس ·· لا وقت لنا للعتاب والملام ! ·

❊ ❊ ❊

كان الجواد يتبختر بى بطريقة تجلب الكبر لأكثر الناس تواضعا ·· مرة يسير بجنبه الأيمن ·· ومرة يسير سيرا طبيعيا ·· ومرة يستدير من تلقاء نفسه ويســير بجانبه الأيسر ·· ويقفز قفزات رشيقة قصيرة بلا ســـبب يستدعى ذلك اللهم الا حبا فى الخيــلاء واستعراض فنون الغطرسة ·

وكان الذى يسير – بجواده – عن يمينى هو (جاد) الذى رشحته أناقته ووسامته لأن يكون (الوزير) الذى لا يفارق الامير ليلا أو نهارا الا فى حالات الضرورة القصوى ·· أما الذى يسير عن يسارى فهو (سالم) ابن عمى ·· كانوا جميعا يرتدون الزعابيط الجميلة ويلفون العمائم المزهرة التى حبكت أطرافها بخيوط خضراء تعمد أكثرهم أن يشبك طرفها ويترك جزءا من الطرف ليتدلى على الجانب الايسر لم يكن يميزنى عنهم الا حملى للسيف والسوط ·

فى الطريق اختلف سالم وجاد ·· قال سالم : « لنبدأ بالنجوع القريبة » ·· ورد جاد معترضا : «لا ·· نبدأ بالنجوع البعيدة أولا» ·· وبعد أخذ ورد استقر الرأى على أن نبدأ بالنجوع البعيدة ·· فتركنا الطريق الرئيسى الذى يشق النجوع وسرنا فى طريق زراعى الى أن وصلنا الى نجع (القرقاعة) ·· آخر نجوع قريتنا ·

صهلت الخيل بطريقة غريزية بمجرد دخولنا نجع القرقاعة ·· تنبه أطفال النجع فتجمعوا حولنا وراحوا ينشدون فى فرح :

« الدعيان ·· فى الوديان »

أشار أحد الاطفال ناحية جاد وقال :

– هذا هو الأمير !

فأشار آخر ناحيتى وقال له :

– بل الأمير هذا ·· ألا ترى سيفه يا عجل !

وقفنا أمام خيمة النجع ·· تجمع أهل القرقاعة حولنا كبارا وصغارا ·· وهتفوا بنا:

– مرحبا ·· انزلوا

رد عليهم الزملاء :

– لا نستطيع ·· هاتوا (الأباريق) !

قال أكثر من واحد من القرقاعة :

ـ الأباريق ليس قيمتكم ٠٠ لابد من شرب الشاى !

أصر الجميع على (الأباريق) لسرعته وسهولته ٠٠ فتح أكثر من باب في النجع وتقدم منا عدة رجال وكل منهم يحمل (سلطانية) امتلأت بالأباريق المحلى بالسكر ٠٠ تناول كل منا ـ وهو فوق جواده ـ رشفة من الأباريق ٠٠ شربت أنا أولا ! ٠٠ رشفة من كل سلطانية ٠

وقفت أمام الخيمة أنا وسالم وجاد ٠٠ وتفرق بقية الصحاب بخيولهم على بيوت النجع ٠٠ يتقدم الواحد من الباب ويقول بطريقة تقليدية :

ـ يا هووه !

فيرد عليه صوت من الداخل ـ حريمى غالبا ـ

ـ الله هوه !

فيقول :

ـ تفضلوا عند الشيخ عثمان أبو عبد المعطى !

فيجيبه الصوت :

ـ يتمم بخير !

كنت أقف ـ مع جاد وسالم ـ فى انتظار انتهاء الصحاب من مهمتهم والجواد يتقدم بى من تلقاء نفسه ـ خطوتين الى الأمام ثم يتأخر خطوتين ٠٠ ثم يرفع رأسه ٠٠ ويخفضه ٠٠ ويدق الارض بحوافره ٠٠ ويدور حول نفسه ٠٠

طريقته فى الاعراب عن نفسه ملأتنى بالزهو فحسدت فرسان العصور الوسطى على هذه المتعة الجميلة وتمنيت أن أقضى بقية عمرى فوق ظهر جواد !

وتركنا نجع القرقاعة الى غيره من النجوع وعند الظهر تماما كنا نتناول الغداء فى نجع الكوامل عند (مهدى) بناء على اتفاق سابق ٠

واستأنفنا الركوب فدرنا على بقية النجوع وعدنا أدراجنا قبل مغيب الشمس بقليل وقد نال منى التعب وشعرت بألم شـــديد فى ظهرى وفخذى ·· وحمدت الله على اننى لم أكن من فرســان العصور الوسطى !

***

قال عم عبد الله يخاطب حسب الله :

– ليس من حقك أن تحنى الامير ·· فالذى يحنيه يجب أن يكون أبوه وأمه على قيد الحياة !

فنظر حسب الله ناحيتى وقال فى تودد :

– كنت أتمنى أن أحنيه بيدى ··

ثم أردف فى أسف :

– لكن رحم الله أبى وأمى !

وتلفت حسب الله حوله ونادى شابا يقف بجـــوار الكلوب الموضوع على نافذة الخيمة ·

– ركابى !

وجاء الشاب فقال له حسب الله :

– تعال معنا لتحنى الأمير ·

وفى البيت وجدنا النساء قد وقفن فى حلقة واســـعة ·· ووسط الحلقة عـدة بروش عليهـا وقاد توهجت جمراته ·· على الجمر وضع اناء كبير من الفخار امتلأ بالحناء ·· صاح حسب الله فيهن :

– الطريق ·

انفتحت الحلقة قبالتنا فدخلنا منها ·· امسك حسب الله بيدى ومنكبى وقال : أقعد ·

جلست على البرش فخلع عنى الزعبوط وتناول من (نجلة) زعبوطا آخر قديما ·· ساعدنى حسب الله فى أن أشمر عن ساعدى ·· خلعت الحذاء ·· تقدم منى الشاب (ركابى) وملأيده بالحناء ثم رفع رأسه يخاطب النساء : « العادة »

ناولته أمى عشرة قروش واعطته أختى نجلة مثلها ·

وحذت كل الواقفات حذوهما ·· وضع ركابى الحناء فى يدى اليمنى ·· لسعتنى سخونتها ·· ثم ملأ يده بالحناء مرة أخرى وضعها فى قدمى اليمنى ·· ثم يدى اليسرى فقدمى اليسرى ·· وفعل مثل ذلك بجاد وسط ضجة كبيرة من الزغاريد ·· وجاءت نجلة بقطعة قماش قديمة مزقتها الى قطع صغيرة وناولتها لركابى الذى لفها حول يدى وقدمى ثم استدار ليفعل ذلك بجاد ·· مكثت فى جلستى هذه أكثر من ساعتين لا أتحرك ·· وترامت الينا أصوات زغاريد آتية من بعيد ·· وصاحت احدى النسوة فى فرح :

ـ العروسة تتحنى !

غاب حسب الله قليلا ثم عاد يحمل بندقيته ·· صوبهـــا الى السماء ·

ـ فوق رأسى ـ وأطلق عدة أعيرة نارية ·· شكرته النساء بموجة من الزغاريد ·· وقالت له أمى :

ـ يوم حامد !

فرد عليها :

ـ يوم حجك يا خالة !

يبست الحناء فى يدى وقدمى ·· ازال ركابى قطع القماش وراح يفرك الحناء ليزيلها ·· غسلت يدى وقدمى ·· وخرجنـــا الى الخيمة التى استقبلتنا بالتهليل والترحيب ·· وجلست فى



صدر المجلس استمع معهم الى منشد الذكر الشيخ عبد الرسول الذى أمتع السامعين :

جات غزالة البرتشـــكى نلنبى حقا وتبـــكى

يا محمــــد انت مكى جيرنى يا ابن الكرام

ووقف الكثيرون يستعيدونه ·· واستخف الطرب بعم عبد الله وخلع عمامته بشالها و (عدبتها) ولوح بها نه ·· ولكنه أعادها الى رأسه بسرعة عندما حدجه أبى بنظرة حادة !

***

فى الصباح كان بيتنا كخلية النحل·· بعض الرجال يزحزحون (قواقع) الدجاج من مكانها بجوار (الموقد) ·· والبعض الآخر يضع مكانها القدور الكبيرة ذات الفوهات الواسعة ·· وعدة رجال آخرين منهمكين فى سلخ خروفين كبيرين ·· وحولهما عدة غلمان قد حملوا أباريق يصبون بها على الذبائح ·· والكثير من الغلمان يدخلون وقد حملوا على رءوسهم الصوانى النحاسية الفارغة وعليها الأطباق التى جمعوها من بيوت النجع ·· ونساء كثيرات يدخلن وقد حملن أطباق الخوص عليها خبز (الملتوت) المنتفخ وقد تطوعن بخبزه فى بيوتهن ·

فى الخارج بعض الرجال يشرفون على الغلمان الذين يجمعون أسرة الحبال من بيوت النجع ويضعونها فى الساحة الكبيرة أمــام الخيمة فى صفوف متراصة ·· والبعض الآخر انهمك فى كنس الخيمة بمكانس من سباط النخيل اليابس ·· وآخرون راحوا يرشــون الساحة بالماء ·· ويصلحون من أمر مربط الركائب ·· فاليوم هو يوم (النهارية) ·· يوم (الدخلة) ·

كنت أدخل البيت وأخرج دون أن أعرف لى عملا ‥ كنت كالمقطوع الرأس ‥ تعصف بى شتى العواطف ومختلف الأحاسيس ‥ خيل الى اننى فأر وقع فى مصيدة ‥ جلست على جزع نخلة فى طرف الساحة ‥ اخرجت رسالة نادية من جيبى – وقد تمزق غلافها – ورحت أستعيد قراءتها ‥ هل أرد عليها برسالة وأشرح لها كل شيء ؟ ‥ ماذا أقول لهـا ؟ ‥ هل أقول لهـا فى بداية الرسالة : « أكتب اليك فى ليلة دخلتى ؟ » ‥ ماذا تقول نادية اذا قرأت هذه الجملة ؟ ‥ ما هو انطباعها لأول وهلة ؟ ‥ هل تصفنى بأننى خائن ؟ ‥ نذل ؟ ‥ جبان ؟ كذاب ؟ ‥ نادية لن تصفنى بأية صفة من هـذه الصفات ‥ اذ أنهـا لن تصدق ما أقوله ‥ سيخيل اليهـا ان الأمر لا يزيد عن دعابة من الدعابات المتبـادلة بيننا ‥ استغرقنى التفكير ‥ وضعت السـيف والسـوط فى حجرى وأسندت رأسى على راحتى ‥ لمحنى أبى وأنا أجلس على هذه الحالة ‥ لم أتنبه له لا عندما وقف فوق رأسى ‥ قال لى وهو يرفع رأسه بيدى :

– مالك ؟

وقع السيف من حجرى عندما هببت واقفا ‥ فعقد ما بين حاجبيه وهو يسألنى :

– ماذا حدث ؟

قلت وقد فوجئت به ·

– لم يحدث شيء ؟

قال ونظراته تزداد حدة :

– أتجلس هكذا فى يوم (نهاريتك) ؟

فى هذه اللحظة انضم الينا جاد ‥ لمح أبى الرسالة فى يدى أشار اليها وقد ربط بينها وبين وجومى ·

ـ ما هذا ؟

تلعثمت وأنا أقول :

ـ لا .. لاشىء .. رسالة !

مد يده يتناولها وهو يقول :

ـ ممن ؟

قلت وما زالت اللعثمة تلازمنى :

ـ من .. من صديق .

ناول الرسالة الى جاد الذى راح يقرؤها بصعوبة .. لم يفهم أبى بعض كلماتها .. كما ان جادا لم يستطع ان يفسرها له .. فالتفت الى غلام وقال له :

ـ هات الشيخ عابدين !

بعد لحظات جاء الشيخ عابدين ـ شيخ الكتاب ـ يقوده الغلام لضعف بصره .. اعاد جاد قراءة الرسالة وراح الشيخ عابدين يفسر ما غمض منها .. وان جاء تفسيره مشوشا بالنسبة للفيلم الذى يعرض فى سينما (مترو) .. ظهرت علامات الغضب على وجه أبى .. شعر البعض بالموقف فتجمع أكثر من كان فى الساحة حولنا .. لاذ أبى بالصمت وان كانت نظراته النارية تكاد تلتهمنى .. تصبب العرق البارد منى .. طالت فترة الصمت حتى تمنيت ان تنشق الأرض وتبتلعنا جميعا .. نطق أبى .. قال لى فى غيظ :

ـ من نادية هذه ؟

لم اجب .. اقترب منى اكثر حتى كاد وجهه ان يلامس وجهى .. بينما تراجع جاد الى الوراء قليلا .. وراح الباقون يحدقون فى وجهى فى دهشة شديدة .. جاءنى صوت أبى كالرعد :

ـ من هذه الفاجرة ؟

فاجرة ؟ .. نادية ؟ .. لو أن أحدا غيرك – يا أبى – نطق بهذه الكلمة لما تركته يقف على قدميه .. قلت وانا احاول ان اكتم انفعالى .

– ليست فاجرة .. هى زميلتى في العمل !

قال فى سخرية :

– زميلتك فى العمل .. تنتظرك عشرين سنة ؟

لم اجب .. تناول أبى الرسالة من جاد ومزقها فى انفعال.

قلبى هو الذى يتمزق .. بل انا الذى اتمزق .. سامحك الله يا أبى .. قال وهو يستدير :

– لولا انها بنت أخى .. لدخلت عليها انا !

وانصرف وهو يتمتم بعبارات لم اتبين منها الا قوله « خرجت من الدنيا بلا ولد ! » .. ثم سمعته ينادى حسب الله ويسر اليه ببضع كلمات .. تقدم على أثرها حسب الله منى وقال لى :

– ستذهب معنا الآن الى (مجلس العرب) .. عندالاشراف

تذكرت ان اليوم هو السبت .. كنت لا ازال منفعلا .. قلت له فى شىء من الحدة :

– لن اتحرك من مكانى !

قال لى وهو يحاول أن يخفت من صوته :

– أبوك أصر على هذا .

أصر ؟ .. وهل اذا تركنى هنا ساهرب ؟ .. ما معنى هذا؟

قطع على حسب الله افكارى بقوله :

– لماذا اغضبته .. ماذا حدث ؟

***

الفصل الخامس عشر

كان الوفد الذى يمثل قبيلتنا فى الصلح يتكون من عشرين شخصا .. وكان اكثرهم من الشيوخ الكبار فى السن .. وكان ضمنهم (جاد) الذى تسبب فى المشكلة بضربه (لعباس) .

كان أبى يسير في مقدمة الوفد وقد رسم على وجهه تعبيرا صارما عرفت من النظرة الأولى أنه رسمه خصيصا ليلقى به خصومه هناك وعلى رأسهم (العمدة) .

بعد مسيرة دقائق وصلنا الى نجع الاشراف .. فوجدناهم يستعدون لاستقبالنا وقد اخذوا كامل زينتهم .. امتلأت خيمتهم – وكانت واسعة جدا – بأسرة الحبال .. وتصاعد الدخان من حجرة القهوة وبدا مربط الركائب لامعا وكأنه غسل لتوه بالماء والصابون .. وانقسم رجالات الاشراف الى ثلاثة أقسام . الشيوخ – وقد جلسوا معنا بالداخل – يرحبون بنا .. والرجال فى سن الثلاثين يكثرون من الخروج والدخول ويشرفون على الذبائح التى تجهز لغداء الوفود .. والشبان الصغار يهرولون هنا وهناك يقدمون القهوة ويقومون بالخدمة ..

وقبل أن ننتهى من ارتشاف (الدور الأول) من الشاى .. وصل وفد البراطيم يتقدمه العمدة بقامته القصيرة وعنقه الغليظ يسبقه كرشه الكبير .. وكان وفد البراطيم يتألف من عشرين شخصا تقريبا .. وقد ارتدوا الزعابيط الغالية الثمن وظهرت عليهم سيماء النعمة وأطلت من أعينهم نظرات التعالى واللامبالاة .. وكان الشاب (عباس) – معهم .

وخف الاشراف لاستقبالهم وراحوا يرحبون بهم ثم أجلسوهم فى الجانب الشرقى من السقيفة ·· وكان وفدنا قد جلس فى الجانب الغربى ·· ونفصل بين الوفدين حوالى عشرة أسرة ·· جلس عليها البعض من الاشراف ·

كان وفدنا يتبادل النظرات مع وفد البراطيم دون ان يكون بين الوفدين كلام ·· كل وفد منهما يتجاهل الآخر وكأنه لا وجود له .. بينما راح الاشراف يوزعون الابتسامات هنا وهناك ليخففوا من وقع الكآبة التى خيمت على المكان .. ويكثرون من الخروج والدخول في انتظار وفد الكوامل .. وكان الاحساس العام ان الصعوبة ليست فى صلحنا نحن والبراطيم ·· ولكن فى الصلح بين البراطيم والكوامل لما بين القبيلتين من حزازات قديمة ·

وبدأ عم عبد الله ـ الذى كان يجلس عن يسارى ـ فى تعليقاته الساخرة .. ضربنى بكوعه فالتفت ناحيته وقال لى هامسا :

ـ هل رأيت عجل الطوافش ؟ (اسم عائلة)

قلت مستوضحا :

ـ عجل ؟

قال وكأنه يرثى لجهلى :

ـ نعم ·· عجل الطوافش ·· ألم تره ؟

قلت باستغراب :

ـ لا .. لماذا ؟

قال موضحا :

ـ الطوافش .. كان عندهم عجل ضخم الجثة .. اسود اللون ·· له كرش كبير ملفت للنظر ·

قلت وما زال الاستغراب يلازمنى :

– وماذا فى هذا ؟
فقرب فمه من أذنى وقال :
– اتضح لى الآن أن هناك شبه كبير بين عجل الطوافش وبين العمدة !

واستمر عم عبـــد الله فى تعليقاته فلم يترك احدا فى وفد البراطيم الا سخر منه على طريقته ·· ثم قال لى :
– هل ترى ذلك الحذاء الفاخر الذى يلبسه العمدة ؟
قلت وأنا أحدق فى حذاء العمدة :
– نعم ·

قال وهو يمسك كم زعبوطه المصنوع من القماش الأســود الرخيص :
– ثمنه يساوى عشرة زعابيط من صنف زعبوطى !
ثم أطلق ضحكة وهو يقول :
– ماذا فى هـذا العجل حتى يكون عمدة ·· ألم يكن الأصح أن أكون أنا العمدة ويكون هو عبد الله ؟!

وهنا سـمعنا ضوضاء شـديدة اختلط فيها صهيل الخيل بنهيق الحمير ·· وهرول الاشراف الى خارج الخيمة .. وعرفنا ان وفد الكوامل قد وصل .. وما هى الا لحظات حتى أهل علينا الشيخ (محارب) بقامته المديدة التى تقارب المترين ·· وعينـاه تدوران فى محجريهما كعينى صقر ..

وقف عند الباب للحظات يوجه للجالسين نظرات من نار .. وشفتاه تتحركان وكأنه يهم بالكلام فيتحرك معهـــا شاربه الاصفر الغزير تحت انفه المقوس فبدا وكأنه وقف للتحدى ..

دار بعينيــه فى الجالســين حتى اذا وقع بصره على أبى انفرجت شفتاه عما يشبه الابتســامة ورفع يده من تحت العباءة وتمتم :

ـ مراحب !
فرد عليه أبى من مجلسه :
ـ أهلا ..

ثم دار بعينيه فى وفد البراطيم حتى اذا وقع بصره على وجه العمدة عاد العبوس الى وجهه بشكل مخيف .. ثم مضى فى طريقه يخب فى زعبوطه الواسع يتبعه وفد قبيلته .. الى أن جلس فى المكان المخصص له فى الناحيه الجنوبيه من السقيفه .. وقد استغرق وفد الكوامل فى دخوله وجلوسه وقتا طويلا .. فقد كان مؤلفا من أكثر من مائة رجل ! .. وبعد أن جلسوا وهدأت الضجة مال عم عبد الله ناحيتى وهمس :

ـ يبدو أن الشيخ محارب جاء للقتال .. وليس للصلح !
قلت أوافقه :
ـ فعلا .. كان يكفى عشرون رجلا .
لكن عم عبد الله قال لى :
ـ اسكت .. هكذا أحسن !
قلت فى دهشة :
ـ لماذا ؟
قال وهو يشير الى العمدة من طرف خفى :
ـ صاحبك لايخاف الا من العين الحمراء !
ثم استطرد يقول :
ـ زمان .. قبل أن تولد أنت .. كان العمدة القديم (والد الحالى) .. يرسل كل من يغضب عليه الى (السلطة) .. فكان أكثر من يرسلهم من قبيلة الكوامل !
قلت :
ـ ولماذا هم بالذات ؟
قال :
ـ كان يكرههم لله فى لله .. كان يقول : « الكوامل عددهم

كثير .. الكوامل خطر ! » .. كانت كثرتهم تضايقه !
ثم جلجل عم عبد الله بصوته الرفيع وقال :
ــ ولما ظهر الشيخ محارب جمع الكوامل وشن على البراطيم هجوما وأعطاهم (علقة) ساخنة لم يروا مثلها في حياتهم !
قلت وقد شدني حديثه :
ــ ألم يخش أن يبعث به الى (السلطة) ؟
قال عم عبد الله في ثقة :
ــ لا .. الشيخ محارب كان قد جمع بعض المال .. وصار يعرف (الحكام) .. أصبح مثله مثل العمدة !
قلت :
ــ ألم يثأر البراطيم لأنفسهم ؟
قال وابتسامته تتراقص في فرح :
ــ حاولوا أكثر من عشر مرات .. كان آخرها تلك التي اوقع فيها الكوامل العمدة من فوق حصانه !
قلت في دهشة :
ــ اوقعوه ؟
قال عم عبد الله في شماتة ظاهرة :
ــ كان البراطيم يحملون النبابيت ويتجهون الى نجع الكوامل .. والعمدة معهم يركب حصانه وينادى بأعلى صوته (ارجع يا ولد) .. وكأنه يعمل الذى عليه ويمنع قبيلته .. بينما هو المحرض على القتال !
قلت في لهفة :
ــ ثم ماذا حدث ؟
قال وهو يضم قبضتيه وكأنه يقاتل :
ــ هجم الكوامل مثل الأسود على البراطيم فكنسوهم كنسا في أقل من ساعة .. ووجد العمدة نفسه وحده وسط العشرات من الكوامل .. فأنزلوه من حصانه وأشبعوه صفعا .. ثم ربطوه

بأمر الشيخ محارب - بعمامته وأركبوه الحصان بالمقلوب ..
وساقوه به وهو على هذه الحال !

وضحك عم عبد الله فى تشف وقال :

- ومن ذلك اليـــوم .. أصبح البراطيم يعملون للشـــيخ محارب ألف حساب !

ثم استطرد بعد أن كسا وجهه بعبوس مصطنع :

- أتعرف .. لو لم يمت العمدة السابق بعدها بشهور .. لما انتهت المسألة على خير !

فسألت عم عبد الله :

- والعمده الحالى .. ألم يثأر لوالده ؟

قال فى انفعال :

- وهل يستطيع ؟.. عندما مات أبوه .. كان الشيخ محارب قد عزم على ترشيح نفسه عمدة .. فخاف صاحبنا هذا وأرســل اليه من يرجوه أن يعدل عن عزمه .. وتصالح معه من يومها وهدأت الحال .. لكن يبدو أن النار تحت الرماد !

***

اعتلى الشـــيخ منصـــور كبير عائلة الاشراف ركنا عاليا فى مواجهة السقيفة له عدة درجات تنتهى بما يشبه المنصة .. وراح يخطب بينما صمت الجميع صمتا تماما .. قال الشيخ منصور .

« بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمـد لله الذى أنعم علينا بنعمته .. وصلاة الله على أشرف خلقه .. أوصيكم ياعباد الله بحق تقوى الله العظيم ولزوم طاعته وأحذركم عن عصيانه ومخالفة أمره .. يقول تعالى فى كتابه العزيز « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم » .. يا أيها الاخوان .. نشكركم على قبولكم مجلس العرب عندنا .. بارك الله فيكم .. نستعين بالله ونبدأ الصلح ..»

ومضى الشيخ منصور فى خطبته بصوت هادىء وقور تشيع فيه الطيبة والوداعة ٠٠ وقد تطلعت اليه الاعين فى اجلال واحترام لما عرف عنه وعن قبيلته من دماثة الخلق وحب الخير الامر الذى جعل كل قبائل قريتنا تخضع لاحكامهم مهما كانت دون أن ترى فى ذلك غضاضة .

مضى الشيخ منصور فى خطبته وقد انصتت له الاذان فقال فى ختامها :

« سنقرأ الفاتحة على الصفاء والنور دون أن نلتفت الى ما فات أو نسأل عن الاسباب ٠٠ فقد قال الرسول صلوات الله عليه (خير الصلح ماكان بغير عتاب) ٠٠ فما رأيكم رحمكم الله ؟ ٠٠ »

وصمت الشيخ منصـــور وراح يتطلع الى الوفود يرى فعــل كلماته ٠٠ فخاطبه العمده بصوت أجش

ـ لا بد من ذكر الاسباب !

فرد الشيخ منصور مبتسما ويده تتحسس ذقنه الصغيرة التى أضفت على وجهه وداعة فوق وداعته :

ـ ولماذا لا نترك الأســباب والعتاب ونأخذ بقول الرســول ياعمدة ؟

فقال العمدة وهو يتأهب للوقوف :

ـ لا ٠٠ المخطىء لابد ان يؤدب !

ثم تقـدم ناحية المنصة فاعتلاها وافسح له الشــيخ منصور مكانه ٠٠ وراح العمدة يخطب :

« سبحان من رفع السماء ٠٠ وبسط الأرض ٠٠ وخلق البحر والجبل » ومال على عم عبد الله وهمس فى أذنى :

ـ هذه الخطبة لا تتغير ولا تتبدل ٠٠ سمعتها أكثر من مائة مرة !

ومضى العمدة يكمل خطبته فقال :

« الله سبحانه وتعالى جعل الخلق درجات ٠٠ ســبحانه ٠٠

نه فى ذلك حكم .. جعل الأصيل أصيلا .. والحقير حقيرا .. والناس مثل الشجر .. الشجرة الطيبة طيبة . والشجرة الخبيثة خبيثة ! »

ضربنى عم عبد الله بكوعه وقال فى سخرية :

– هذه الشجرة التى ذكرها العمدة عمرها من عمر الخطبة .. سمعتها أول مرة وكان عمرى عشرين سنة .. وأنا الآن عمرى ستين سنة . وهذه الشجرة واقفة فى مكانها .. لا تقع ولا تنكسر !

واختتم العمدة خطبته بقوله :

« هناك ولد غير مؤدب من المساعيد اعتدى على ابننا.. ونحن لن نوافق على الصلح الا بعد تأديبه أمام أعيننا .. والا فنحن قادرون على تأديبه بأيدينا .. والسلام ! »

ثم نزل وعاد الى مجلسه ووجهه يتصبب عرقا .. وهنا اعتلى أبى المنصة وقال بعد مقدمة قالها كيفما اتفق :

« ابننا لم يخطىء .. ولو كان أخطأ لأدبناه .. لذلك لانستطيع تأديب المؤدب ! »

وحانت منى التفاتة ناحية الشيخ محارب فرأيته مشغولا بفتل شاربه .. وسألت عم عبد الله :

– لماذا لم يخطب الشيخ محارب ؟

فرد بقوله :

– الشيخ محارب لا يجيد الكلام الا بالنبوت !

هنا قال العمدة يخاطب الشيخ منصور :

– المخطىء يؤدب يا شيخ منصور .

فرد أبى يخاطب الشيخ منصور أيضا :

– ابننا لم يخطىء !

قال العمدة :

– بل أخطأ !

رد أبى فى تصميم :

ـ لم يخطىء !
قال العمدة ـ للشيخ منصور أيضا ـ فى شىء من الحدة
ـ ولكننى قلت أخطأ ٠
رد أبى :
ـ وأنا قلت لم يخطىء !
قال العمدة وقد ظهر عليه الغضب الشديد :
ـ على كل حال ٠٠ نحن نعرف كيف نأخذ حقنا !
وتكهرب الجو ٠٠ وظهرت الحيرة على وجه الشيخ منصور الذى راح ينقل بصره بين أبى وبين العمدة فبدا منظره وكأنه يدور حول نفسه ٠٠ وظهرت الحيرة على وجوه شيوخ الاشراف ٠٠ وتبادل وفدنا ووفد البراطيم النظرات النارية ٠٠ وهنا وقف الشيخ محارب ٠٠ فتطلعت اليه الأعين ـ لاسيما أعين الاشراف ـ فى رجاء وكأنها تطلب الخلاص على يديه ٠٠ فخرج صوت الشيخ محارب شبيها بالزئير ٠٠ قال وهو يلوح بيديه :
ـ اخطأ ؟ .. الذى يدافع عن نفسه تقولون عليه انه أخطأ ؟ .. ابن بنتنا لم يخطىء .. والذى يمسه بالماء نمسه بالنار!
وجلس الشيخ محارب يلملم أطراف عباءته بعد أن زاد النار اشتعالا ٠٠ ومرت فترة صمت ثقيلة كأنها دهر ٠٠ وبدا الحنق على وجه العمدة ٠٠ ونمت وجوه شيوخ البراطيم عن الاستياء الشديد٠٠ واطبق الصمت ٠ وكأن له صوتا يسمع وتحسس حسب الله نبوته وهو يتحفز فى جلسته .. وهرول الشيخ منصور الى المنصة فاعتلاها ٠٠ وقال :
ـ يا عرب ٠٠ هل تقبلون حكمنا ؟
ولما لم يرد عليه أحد أعاد النداء :
ـ هل تقبلون حكمنا ؟
فرد الشيخ محارب :
ـ نقبل يا شيخ منصور ٠

ثم التفت ناحية وفدنا وقال :

ـ يا عرب ٠٠ هل تقبلون ؟

فرد أبى :

ـ نقبل !

فالتفت ناحية البراطيم وقال :

ـ هل تقبلون ما نحكم به ؟

فرد العمدة بصوت وشت نبراته بعدم الاقتناع :

ـ نقبل !

فنزل الشيخ منصور من المنصة وأشار الى ثلاثة من شيوخ قبيلته ٠٠ اقبلوا عليه فمضى بهم الى خارج الخيمة وقال يخاطب الجميع :

ـ نتشاور ٠٠ ونحكم بينكم !

وهنا قرب عم عبد الله فمه من أذنى وقال :

ـ الذى يقبل الحكم لا يستطيع أن يرفضه مهما كان !

ثم استطرد يقول على طريقته :

ـ ربنا يستر ٠٠ أنا شهدت مرة صلحا ٠٠ انقلب فى آخره الى معركة ٠٠ خرجت منه بضربة نبوت ٠٠ لازمت بعدها الفراش شهرين !

وعاد الشيخ منصور ومعه الشيوخ الثلاثة ٠٠ كان متهلل الاسارير ٠٠ سارع الى اعتلاء المنصة ورفع يديه الى السماء وقال :

« اللهم انا نفعل ما نعتقد أنه الحق .. اللهم انا لا نريد الا مرضاتك ٠٠ اللهم وفقنا الى ما فيه الخير »

قال هذا ٠٠ ونزل على مهل وهو يقول :

ـ بسم الله ٠٠ وعلى بركة رسول الله ٠

ثم تقدم فى خطوات وئيدة الى حيث يجلس وفد قبيلتنا حتى اذا وصل الى المكان الذى يجلس فيه (جاد) ـ وكان بجوارى ـ

• تقدم منه وامسك يده برفق وقال له :
ــ قم معى يا ولدى ٠
وأطاعه جاد ٠٠ وسار به الى حيث يجلس وفد البراطيم ٠٠ حتى اذا كان قبالة العمدة ٠٠ مد يده الممسكة بيد جاد وقال للعمدة:
ــ هذا هو ابنكم جاد ٠٠ جاءكم تائبا معترفا بخطئه ٠٠ خذوه وافعلوا به ما شئتم !
وهنا بدت الحيرة واضــحة على وجه العمدة ٠٠ فالتفت يمنة ويسرة نحو شيوخ البراطيم وكأنه يستنجد بهم ٠٠ وبادله الشيوخ نظرات الحيرة فى صمت لكن أحد الشيوخ ــ وكان يبــدو أكبرهم سنا ــ قال فى صوت مرتعش من أثر الكبر :
ــ ونحن سامحناه وتنازلنا عن حقنا !
وارتخت عضلات الوجوه فى كل الوفود ٠٠ وعقب العمدة :
ــ من أجل خاطركم يا أشراف !
لكن الشيخ العجوز الذى سبق العمدة فى الكلام أضاف قائلا :
ــ ومن أجل خاطر جميع الموجودين !
فهتف الشيخ منصور فى فرح :
ــ الله أكبر ٠٠ بارك الله فيكم ٠٠ الفاتحة ٠
وارتفعت عشرات الأكف تقرأ الفاتحة ٠٠ وما ان انتهوا منها حتى انقلب الموقف من النقيض الى النقيض ٠٠ تصافح أبى والعمدة٠٠ وتصــافح العمــدة والشــيخ محارب ٠٠ واختلطت الوفود بعضها ببعض ٠٠ وكأن عصا سحرية قد مست الجميع ٠٠ وهجم علينا شبان الاشراف بالصــوانى التى فت فى أطبــاقها خبز (النشابى) اللذيذ المغمور بالمرق ٠٠ وقد كومت عليه أكوام اللحم٠٠ فتشمرت السواعد تخــوض معركة اشــباع البطون الازلية ٠٠ وقال لى عم عبد الله وأسنانه تطبق على فخذ كامل لخروف :
ــ أنا لا أذوق اللحم الا فى مثل هذه المجالس ٠٠ اللهم ادم علينا المشاكل والمعارك يارب العالمين !
***

الفصل السادس عشر

في منتصف الليل تماما صاح شاب من قبيلتنا :

– الردى ٠٠ الردى ! (أى الزفة)

وتحرك موكب (الزفة) صوب بيت عمى ٠٠ الشبان يحيطون بى فى المقدمة وقد حملوا النبابيت المخضبة بالحناء ٠٠ والسيدات فى الخلف بدفوفهن وزغاريدهن ٠٠ ولم يكن معنا من الشيوخ غير بضعة أفراد من بينهم عم عبد الله الذى همس فى أذنى قائلا :

– فى بعض البلاد الاخرى ٠٠ العروسة هى التى تزف الى الأمير وكأنها نعجة !

وكان الشبان يرددون وراء منشدهم :

« زين الشامات نمدح الله »

وقال أحد الشبان وهو يمسك نبوته وكأنه يستعد للقتال :

– لن نسلم الامير ولو استعملنا القوة !

لكن حسب الله صاح فيه :

– اسكت !

ثم التفت الى الشبان قائلا :

– سلموا الامير بمجرد أن يطلب منكم ذلك !

وابتسم عم عبد الله وهو يقول لى :

– احمد ربنا لان العروسة من قبيلتك ٠٠ لو كانت العروسة من قبيلة أخرى لتصدى لك شبانها وطلبوا منك أن تسلم نفسك والا فليس هناك من حل غير النبوت !

ثم ضحك عم عبد الله وهو يقول :

ـ يوم دخلتى رفض أبناء عمى تسليمى ٠٠ وهوت النبابيت بين الفريقين حتى مطلع الفجر !

ثم اردف وهو يضحك بصوت عال :

ـ لو ان أبناء عمى قالوا لهم : « ها هو الامير » عندما طلبوا استلامى لما خسروا شيئا ٠٠ كل الذى سيحدث هو ان (المنشد) فقط هو الذى يتغير ٠٠ بدلا من أن يكون من قبيلة الأمير يصبح من قبيلة العروسة ٠٠ هذا كل مافى الامر ٠٠ لكن أبناء عمى تعنتوا ـ كما يحدث دائما ـ فسكتت الألسن وتكلمت النبابيت !

وصمت عم عبد الله قليلا ريثما يحشو فمه بالمدغة ثم قال :

ـ وعندما تدخل الكبار فى السن لفض المعركة ٠٠ كان مركوبى قد ضاع ودخلت على العروسة حافيا !

وفى الدرب المفضى الى الساحة الواقعة أمام بيت عمى تصدى لنا عدة شبان يحملون النبابيت ٠٠ صاح أحدهم فينا :

ـ نريد الامير !

فأشار حسب الله ناحيتى وقال لهم :

ـ الامير لكم !

فصمت منشدنا وبدأ منشدهم فى الغناء ٠٠ وتقدم الموكب فى سيره فوجدنا الساحة قد امتلأت بأسرة الحبال وهدأت ضجة النشيد ودفوف النساء وبدأت عبارات الترحيب ٠٠ وأجلسونى ـ أنا وجاد ـ على سرير تميز عن غيره بما عليه من سجاد ومساند جديدة ٠٠ ودخلت النساء الى داخل البيت ٠٠ وبدأ الشبان ينظمون صفوفهم ويغنون أغنية (العراسة) ٠٠ وبعد ساعة تقريبا صاح حسب الله :

ـ الدخلة !

وتقدمت ومعى الشبان الى داخل البيت ٠٠ ووقفت أمام حجرة علق على أعلى بابها طبق صغير من الصينى ٠٠ وقال لى حسب الله :

ـ اسحب السيف !

فسحبت السيف وقلت : «بسم الله» ثم ضربت طبق الصينى بطرف السيف ثلاث ضربات خفيفة ٠٠ وفتـــح حسب الله الباب فدخلت ـ وحدى ـ وصاح الشبان من الخارج بنشيدهم :

« زين الشامات نمدح الله »

وجدت نفسى فى حجرة واسعة داخلها حجرة أخرى أصغر ٠٠ فى الحجرة الداخلية وقفت سلمى ومعها امرأة عجوز ٠٠ كانت سلمى ترتدى ثوبا اسود كشف ـ لشفافيته ـ عن لون الثوب الاحمر اللامع الذى تحته ٠٠ وتضع على رأسها شالا أصفر اللون ٠٠ تقدمت منها وسلمت عليها وأعطيتها ورقة مالية من فئة الجنيه ٠٠ تناولت الجنيه دون أن ترفع اهدابها ٠٠ واستدرت لاخرج ولكن المرأة قالت لى :

ـ أين العادة يا خالة ؟ !

فاعطيتها ورقة من فئة النصف جنيه ٠٠ حاولت أن أخرج لكن الباب استعصى فتحه لان حسب الله يمسك بالضبة من الخارج ٠٠ ناديته باسمه فلم يسمعنى لضـــجة الشـــبان الشديدة حوله ٠٠ فاضطررت أن أضرب الباب بقبضة يدى ٠٠ ففتح حسب الله الباب واحتضننى مهنئا ٠٠ وصافحنى بقية الشبان ٠٠ وصاح حسب الله وهو يمسك بيدى ويهرول :

ـ الى البحر !

وهرولنا جميعا الى أن وقفنا على شاطىء النيل ٠٠ فوضعت يدى اليمنى فى الماء !

وعند عودتنا استوقفنى حسب الله فى منتصف الطريق ٠٠ وناولنى كوبا من الماء وقال لى :

ـ خذ رشفة فى فمك . .ورش بها وجه العروسة .. حذار أن ترشك قبل أن ترشها !

وعادت العروسة بموكبها من النيل .. ووقفت النسوة قبالتنا فى ضوء القمر .. وأشار حسب الله ناحيتهن وقال لى :

ـ العروسة هى تلك التى تلفها امرأة أخرى معها فى ردانها !

وتقدمت من النسوة بعد أن مـلأت فمى بالمـــاء .. وصاحت النسوة يحرضن سلمى :

ـ حذار أن يغلبك !

وما ان اقتربت حتى فوجئت بالماء يمـلأ وجهى .. فارتج على وسقط الماء من فمى .. وتعالت الضحكات من الرجال والنساء .. وقهقه حسب الله وهو يقول لى :

ـ أهكذا تخذلنا ؟

فردت عليه امرأة عجوز :

ـ الله نصر قبيلتنا ـ نحن النساء ـ على قبيلتكم !

وعدنا الى بيت الزوجية الجديد فقضينا فيه ليلتنا أنا وجاه وحسب الله وحوالى عشرة شبان !

***

فى الصباح البــاكر كان أبى هو أول الداخلين علينـــا .. صافحنى وقال لى وهو يمد لى ورقة من فئة الجنيه :

ـ بالمال .. والعيال !

وظللنا فى مكاننا والناس يتجمعون الى قبيل الظهر بقليل .. وبدأت النساء تضرب بالدفوف ـ وقد قضين الليلة فى سقيفة عمى ـ ويرددن أغنية المناسبة :

« الشمس طلعت يا أمير قوم بينا »

وبدأ الموكب يتحرك من جديد صوب بيتنا ·· وأمام باب بيتنا وقف الشبان يرددون نشيدهم فى ضجة وصخب ·· فخرجت أمى تحمل كوبا من اللبن ·· أعطتنى اياه وهى تقول :

ـ بالمال والعيال !

فتناولت منه رشفة ·· وتناول جاد رشفة واختطف الشبان الكوب وراحوا يتعاركون عليه . !

ووقف أبى على بعد أمتار من أمى فتقـدم بى الشبان ناحيته وراحوا ينشدون بنفس الضجة والصخب ·· ثم أشار حسب الله اليهم أن يصمتوا فصمتوا ·· وقال يخاطب أبى فى لهجة تقليدية :

ـ الأمير يريد العادة !

فقال أبى وصوته يتهدج تأثرا من الفرح :

ـ وهبته الستة قراريط الشرقية ·· والثلاث نخلات السكرتية وتعالت أصوات الشبان بالأناشيد وزغردت النساء !

***

وفى المساء سار بصحبتى ثلاثة شبان من بينهم جاد الى بيت عمى ·· وجلسنا داخل الحجرتين ـ بيت الزوجية ـ فقدم لنا بعض الطعام ·· بعد وقت قليل انصرف الشبان ووجدت نفسى وحيدا ·· سمعت صوت امرأة عند الباب تخاطب سلمى :

ـ اتستحى من ابن عمك ؟

وما لبثت المرأة أن دخلت وبصحبتها سلمى ·· قالت لها :

ـ سلمى على ابن عمك ·· واجلسى على السرير !

فجلست منكسة الرأس .

ثم قالت لى المرأة وهى تستعد للذهاب :

ـ العادة يا خالة !

وخرجت المرأة وأدرت عينى فى البيت الجديد ٠٠ فاذا به قد تغير عما كان بالأمس ٠٠ أدخل به سرير من الجريد عليه حشية وملاءة بيضاء وعدة وسائد ٠٠ والجدران قد امتلأت بالبروش الملونة ٠٠ وفوق البروش وضعت أطباق الخوص الزاهية الالوان٠٠ وتدلت من السقف (الشعاليب) المزركشة بالصدف وقد وضع فى كل (شعلوب) طبق صغير من الصينى ٠٠ ونظرت ناحية سلمى وقلت :

ـ كيف حالك ؟

فلم ترد ٠٠ ولبثت أكثر من نصف ساعة أبحث عن مجال الحديث بينى وبينها فلا أجد ٠٠ وأشرت الى طبق من الخوص له رسوم مختلفة عن غيره وقلت :

ـ ما اسم هذا النوع من الاطباق ؟

فنظرت اليه وعادت الى خفض رأسها وهى تقول :

ـ اسمه الكردفانى !

***

انتهت أجازتى

فى اليوم الذى غادرت فيه القرية ٠٠ قال لى أبى :

ـ عروستك تصحبها معك بعد سنتين ٠٠ فالعروسة لا تخرج من ديار أهلها قبل هذا الموعد !

وتجمع أبناء القبيلة يودعوننى ٠٠ وشد عم عبد الله على يدى وهمس فى أذنى قائلا :

ـ أحقا انك تعشق فتاة بحراوية ؟

نقلت في دهشة :

ـ من قال لك هذا ؟

فأغمض عينا وفتح أخرى وهو يقول :

ـ وهل تخفى على خافية .. ألم تضبط رسالتها معك ؟!

ثم تلفت حوله .. ولما اطمأن الى ان أحدا لا يسمعنا هـ
لى قائلا :

ـ ما دمت قد (دخلت) على بنت عمك .. فلا عار عليك الآن أن تركتها لتتزوج من غيرك !! .. لكن هل تظن أن البحراو: أجمل منها ؟.. على الطلاق هى أجمل !

« تمت »

المطبعة الثقافية
رقم الايداع بدار الكتب ١٧٣٩/١٩٧٠

